مختارات من التفاسير في الحواميم

جمع وإعداد

أستاذ دكتور

عبد الرحيم سلطان متولي



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

tokoboko_5@yahoo.com

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: عبد الرحيم سلطان متولي

إعـــــداد: مختارات من التفاسير في الحواميم

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١٢



القاهـــرة : ٤ ميــــدان حليــم خلــف بنــك فيصــل
ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أنزل القرآن الكريم رحمة للعالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد: -

فقد شرح الله صدرى لجمع وإعداد بعض التفاسير لسور الحواميم السبعة، وهى: غافر - فصلت - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية - الأحقاف، وتبدأ كلها ب " حم " وفضل القرآن الكريم، أو قسم من الله بالقرآن الكريم.

قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - : " آل حم ديباج القرآن "، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : " إن لكل شيء لباباً ولباب القرآن آل حم، أو قال الحواميم "، وقال مِسْعر بن كدام: " كان يقال لهن العرائس "، روى ذلك كله الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله تعالى - في كتاب " فضائل القرآن ".

وقيل في تفسير " حم " وغيرها من الحروف المقطعة إن هذا الكتاب المعجز لغة وحكماً مركب من مثل هذه الحروف، ورغم ذلك عجز بلغاء العرب على أن يأتوا بمثله؛ بل بآية واحدة من مثله، فهو ُمنّزَّل من الله العزيز الحكيم، وقيل: إن هذه الأحرف وغيرها مما افتتحت به بعض السور من الأسرار المحجوبة، وقيل: إنها من أسماء الله - تعالى - أو اسم من أسماء القرآن، وقيل: هي إيمان لله - عز وجل -، وقيل: هى إشارة لابتداء كلام وانتهاء كلام.

وتدعو هذه السور كلها إلى وحدانية الله وتصحيح العقيدة من الشرك، وهى سور مكية تقص أمثلة من الأمم السابقة التي كذبت الرسل، وكيف كان عقابها، وتصور حال المؤمنين والكافرين في الآخرة.

وحسب الباحث أن يتدبر آيات الله البينات، ويستنبط منها قدر الطاقة ما يثبت فؤاده ويصحح اعتقاده ويهذب أخلاقه، ويهديه إلى سواء السبيل.

قال تعالى :﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ **[سورة ص، آية: ٢٩].**

وقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ **[سورة القمر، آية: ١٧].**

وإليك عزيزى القارىء افتتاح الحواميم: -

١ - سورة غافر: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

٢- سورة فصلت: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾.

٣ - سورة الشورى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾.

٤- سورة الزخرف: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

٥- سورة الدخان: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

٦- سورة الجاثية: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

٧- سورة الأحقاف: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ ﴾.

ولهذا نجد أن هذه السور قد اتحدت في كثير من الأغراض والمقاصد، وتشابهت في كثير من الأساليب والتراكيب وقوة اللهجة وعنف التحدى وبراعة الحوار، وغير ذلك من الوجوه التي يقف عندها الباحث طويلا للتأمل والنظر كما سيتضح في تفسير هذه السور.

وحسبى أننى قرأت بعض التفاسير وأضفت إليها بعض ما فتح الله به علىَ من تأملاتٍ في هذا الكتاب.

وأود أن أشكر الأزهر الشريف، أدامه الله وأعزه، وجعله الله مناراً للعلم الصحيح، وحصناً للسنة، وزخراً للمسلمين، كما أود أن أخص بالشكر مجمع البحوث الإسلامية، بارك الله فيه وفى القائمين عليه. ونسأل الله أن يتقبل عملنا هذا ويجعله خالصاً لوجهه، وأن يكون من العلم النافع الذي تبقى ثمرته بعد موتنا في صحائف أعمالنا، ويجعله زاداً لحسن الرجوع إليه، وعتاداً ليمن القدوم عليه، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

اسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينفع به من كتبه ومن قرأه إنه سميع قريب.

دكتور/ عبد الرحيم سلطان متولى

***

سورة غافر

مختارات من التفاسير في الحواميم

سورة غافر

سورة غافر مكية إلا آيتى " ٥٦، ٥٧ " فمدنيتان، ونزلت بعد سورة الزمر، وهى تعنى بأمور العقيدة كشأن سائر السور المكية، وسميت بهذا الاسم لأن الله - تعالى - ذكر هذا الوصف الجليل - الذي هو من صفات الله الحسنى - في مطلع السورة: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾، وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن: ﴿ وَأَنَاْ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾.

أوجز الله كل موضوعات السورة بالمعانى التي جاءت في أول ثلاث آيات منها، ثم فصلت هذه المعانى في بقية السورة، والتى تتكون من خمس وثمانين آية.

قال تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

زيلت الآية الثانية باسمين من أسماء الله الحسنى وهما: -

١- " العزيز " أي: القوى القادر الذى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وكل المخلوقات تحت قهره وتصرفه، ولا يستطيع مخلوق أن يفلت منه.

٢- " العليم " أي: له صفة العلم الكامل، والذى يصرف الوجود عن علم وخبرة، فلا يخفى عليه شيء، فهو يعلم الذنب ويستره ويغفره، ويقبل توبة العباد ويتقبلهم في حماه، ويفتح لهم بابه كلما رجعوا إليه وأنابوا، وهاتان الصفتان مهمتان في استقصاء المعنى الكامل في هذه السورة.

فالله - عز وجل - يغفر ما سلف من الذنب للعباد بما يعلمه - سبحانه - من استحقاقهم للغفران، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه، وهو أيضا شديد العقاب لمن تمرد وطغى، وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله وبغى، وقدم المغفرة والتوبة على العقاب للإشارة إلى سعة الفضل، وأن رحمته سبقت عذابه، ومن صفات الله - تبارك وتعالى - أيضاً أنه: ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ **أي: ذى السعة والغنى، وذى الفضل والمن، فهو متفضل على عباده بما هم فيه من المنن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، وهو يضاعف الحسنات ويعطى بغير حساب.**

﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ **فله الألوهية وحده ولا نظير له في جميع صفاته ولارب سواه،** ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ **أي: المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله فلا مهرب من حسابه ولا مفر من لقائه.**

كان هذا هو الموجز وإليكم التفصيل.

قال تعالى:

﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾

أي إن علمه - تعالى - أحاط بجدال الذين كفروا في كل زمان ومكان، فقد كذب كفار قريش وجادلوا رسولهم كما فعل مَن قبلهم من قوم نوح والأحزاب من بعدهم؛ حيث همت كل أمة من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم، فلا تغتر أيها العاقل بتقلبهم بمتاع الدنيا الزائلة، فهو متاع قليل وظل زائل، فإن الله وإن أمهلهم لا

يهملهم، بل يأخذهم بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر، وفى ذلك تسلية للنبى (صلي الله عليه وسلم) ووعيد شديد للكفار؛ حيث قال - تعالى: ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ **وهنا تتضح صفتا العزيز وشديد العقاب.**

وبعد ذلك يقرر الله - عز وجل - وجوب العذاب على كفار قريش، كما وجب لمن سبقهم من الكفار حيث قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الله الكفار؛ ثنى بذكر الملائكة الأطهار والمؤمنين الأبرار، فالملائكة المقربون في عبادة لله دائمة، ينزهونه عن صفات النقص ويثنون عليه بصفات الكمال، وهم مع عبادتهم واستغراقهم في التسبيح يطلبون من الله المغفرة للمؤمنين، مبادرين بالثناء عليه قبل الدعاء بوصف الله - تعالى - بالرحمة والعلم قائلين: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ **واستقاموا على سبيلك المستقيم الذي جاء به رسلك، أي: أنهم في طلب الرحمة للمؤمنين إنما يستمدون من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويحيلون إلى علم الله الذي وسع كل شيء، وأنهم لا يقدمون بين يدى الله بشىء إنما هى رحمته وعلمه؛ منهما يستمدون وإليهما يلجؤون، وفى ذلك إشارة إلى الصفات " العليم - غافر الذنب - وقابل التوب " والتى تناسب حال المؤمنين، كما**

تلتقى الإشارة إلى عذاب الجحيم بصفة الله شديد العقاب.

وهذا يوضح رحمة الله بالمؤمنين، فهو غافر الذنب وقابل التوب وذى الفضل والمنة على عباده، وعلمه محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، فيصفح عن المسيئين منهم إذا تابوا وأنابوا واتبعوا ما أمرهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات، ومن رحمته أيضاً: أنه لا يجازيهم بسيئات أعمالهم فيزحزحهم عن عذاب الجحيم، وذلك هو الفوز العظيم. ومن دعاء الملائكة المقربين أيضا - للمؤمنين - أن يجمع الله بينهم وبين ذويهم ممن صلح من آبائهم وذرياتهم في منازل متجاورة في الجنة لتقر بذلك أعينهم، وفى ذلك إشارة لصفة ذى الطول. والتعقيب على دعاء الملائكة ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ يشير إلى القوة، كما يشير إلى الحكمة، وبها يكون الحكم في أمر العباد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ۝١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ۝١٢﴾.

تنادى الملائكة على الكافرين يوم القيامة عندما عاينوا العذاب - على سبيل التوبيخ والتأنيب - أن شدة بغض الله لهم في الدنيا أكبر من بغضهم أنفسهم بسبب كفرهم وعنادهم، وفى هذا الموقف يطلبون الرجعة للدنيا طلب الذليل، ويتلطفوا في السؤال بقولهم ربنا، وقد كانوا يكفرون به في الدنيا، ويعترفون بأنه خلقهم من العدم بداءة ثم أماتهم ثم بعثهم، فأجابتهم الملائكة بعد اعترافهم بذنوبهم أن لا سبيل إلى عودهم ومرجعهم إلى الدار الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن سجايا الكافرين لا تقبل الحق لعلم الله بهم،

فهو العزيز العليم ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ ﴾ **أي: أنتم هكذا تكونون وإن عدتم إلى الدنيا كما قال تعالى:** ﴿ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ **[الأنعام، الآية: ٢٨]. فالله هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لايجور، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو؛ حيث يقول - عز وجل - :** ﴿ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴾، **فهو الذي حكم على المشركين بالنار، وصفتا العلى الكبير تناسبان موقف الحكم، الإستعلاء على كل شيء، والكبر فوق كل شيء في موقف الفصل الأخير.**

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

تتجلى في الآية " ١٣ " معنى" ذى الطول وقابل التوب" فالله - سبحانه وتعالى - يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها، وينزل لهم من السماء المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار، ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله، وهو ماء واحد، ولعل من رزق الله أيضا غير المطر تلك الرسالات المنزلة التي قادت البشرية إلى الطريق المستقيم،

وما يعتبر ويتعظ بهذه الآيات إلاَّ منْ يرجع إلى الله بالتوبة والإنابة ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ **كما تتجلى قضية التوحيد الخالص في الآية " ١٤ : "** ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ **أي: فأخلصوا العبادة والدعاء لله وحده لا شريك له، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم حتى ولو كره الكافرون ذلك وغاظهم إخلاصكم لله، فالله رفيع درجات الكمال وعظيم الشأن والسلطان، وهنا تتبلور صفة العزيز** ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ **أي: صاحب العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات؛ وهو كالسقف لها، وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوى والسفلى تحت ملكوته وقبضة قدرته مما يقضى بكون علو شأنه وعظم سلطانه في غاية لا غاية وراءها (تفسير أبى مسعود: ٥/٥).**

﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ **وهذا كناية عن الوحى بالرسالة التي تحيى الأرواح والقلوب، فالله هو الذي يلقى أمره المحيى للأرواح والقلوب على من يختاره من عباده، والتعبير** ﴿ يُلْقِى ﴾ **يوحى أنه يتنزل من علو على المختارين من العباد، وهذا يتناسب مع صفة الله** ﴿ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ **، والمهمة الرئيسية للرسل: هي الإنذار لذلك قال تعالى:** ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ **يعنى: يوم القيامة الذي يلتقى فيه الأولون والآخرون، وأهل السماء وأهل الأرض، والظالم والمظلوم، ويلتقى فيه الخالق والخلق ليحاسبهم على أعمالهم، يوم يكون الخلائق كلهم بادون ظاهرون لاشىء يظلهم أو يسترهم، والجميع في علمه على السواء، وهنا تبرز صفة العليم كما تبرز صفة العزيز في قوله تعالى:** ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ **فالجميع تحت قهره وتصرفه، ثم يخبر الله - عز وجل - عن عدله في حكمه بين خلقه، وأنه لا يظلم أحداً شيئاً؛ بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة، وهو سريع الحساب؛**

يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كقوله - تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان، آية: ٢٨] **ويستطرد السياق بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى إنذار قومه وأمته بذلك اليوم** ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ **من شدة الهول، وسميت القيامة بذلك الاسم لاقترابها، كقوله - تعالى:** ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة النجم]، **وقال - عز وجل:** ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر، آية: ١]، **وقال عز من قائل:**﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، **وحينها تقف القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وهم واقفون ساكتون لا يتكلمون وليس للمشركين من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم، بل تقطعت بهم الأسباب من كل خير، ولهذا قال تعالى:** ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ **وهنا إشارة إلى معنى شديد العقاب وإليه المصير في مطلع السورة الكريمة، كما تتضح معنى صفة العليم في أكمل صورة مرة ثانية في قوله تعالى:**﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ **فعلمه التام يحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، حتى ما تخفيه الصدور من الوسوسة؛ ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا منه حق الحياء، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه.** ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ **أي: أن الله يحكم بالعدل، والذين يدعون من دونه من الأصنام والأوثان لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء، وهنا دعوة إلى التوحيد بالإشارة إلى:** ﴿ **لا إله إلا الله** ﴾ **في مطلع السورة، وأن الله سميع لأقوال خلقه، بصير بهم؛ فيهدى من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في جميع ذلك عن علم وعن خبرة وعن سمع وعن رؤية، فلا يظلم أحداً ولا ينسى**

أحداً، ولذلك قال - تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

في هاتين الآيتين إشارة واضحة لصفات الله " العزيز العليم، شديد العقاب "، وفيهما عبرة وعظة لمشركى قريش، ومن على شاكلتهم من أمة محمد (صلي الله عليه وسلم)، حيث يوجههم القرآن إلى السير في الأرض ورؤية مصارع الغابرين المكذبين بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وما حل بهم من العذاب، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة وأثروا في الأرض من الزراعة والمعالم والديارات ما لا يقدر عليه هؤلاء، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم - وهى كفرهم برسلهم - وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق، وذلك بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالدلائل الواضحات، والبراهين الساطعات؛ فكفروا فأهلكهم الله ودمر عليهم وللكافرين أمثالها، إنه قوى شديد العقاب، ثم قص الله - عز وجل - على نبيه محمد (صلي الله عليه وسلم) نموذجاً من نماذج الأمم المكذبة للرسل وما حل بهم، وهى قصة موسى - عليه السلام - وفرعون؛ تسلية له في تكذيب من كذبه من قومه ومبشراً بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة؛كما جرى لموسى - عليه السلام.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ
عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا
كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ
وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ
﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ
ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ
رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا
فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي
مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن
يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ
أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم
مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ
وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ
تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا
جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ
يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي
صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ
وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ
أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ
ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ
صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ

فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

تبدأ القصة بعرض موسى - عليه السلام - لرسالته على فرعون مصر ووزيره هامان، وقارون الذي كان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة، وكان موسى مؤيداً من ربه بالآيات البينات والدلائل الواضحات، فكذبوا موسى وجحدوا بالآيات الدالة على أن الله - عز وجل - أرسله إليهم، وأمر فرعون مصر - للمرة الثانية - بقتل ذكور بنى إسرائيل الذين آمنوا مع موسى، وترك إناثهم للخدمة لإهانتهم وإرهابهم حتى يتراجعوا عن إيمانهم مع موسى، وكذلك بهدف تقليل عدد بنى إسرائيل في مصر، وما تدبيرهم و مكرهم إلا في خسران وهلاك، فلما فشل سعيه في ذلك عزم فرعون - لعنه الله تعالى - على قتل موسى - عليه السلام -، وتبجح في قوله حيث قال: ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ **أي: أنه لا يبالى به، وتعلل في ذلك - قبحه الله - بخشيته أن يغير موسى عادات أهل مصر في عبادتهم له ويضلهم، أو أن يثير الفتن والقلاقل، فلما بلغ موسى - عليه السلام - نية فرعون بقتله استجار بالله واعتصم به واطمأن وسلّم أمره إلى الله، المستعلى على كل متكبر، والقاهر لكل متجبر؛ فهو القادر على حماية العائذين به من المستكبرين، وهنا إشارة إلى وحدانية الله** ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ **وإشارة إلى عدم إيمان فرعون بيوم الحساب،**

وهنا قال رجل مؤمن من آل فرعون - والمشهور أن هذا الرجل كان ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه عن قومه القبط - فأخذته غضبة لله

- عز وجل - حين قال فرعون: ﴿ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ ﴾، فقال: ﴿ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ أي: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول ربى الله، ومعه حجته ودليل على صدق ما جاءكم به، ثم تنَزّل معهم في المخاطبة فقال: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ ﴾ أي: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأى التام أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه، فالله - تعالى - سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، ثم قال الرجل المؤمن: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾، أي: لو كان موسى كاذباً في زعمه أن الله أرسله كما تزعمون؛ لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله؛ فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، ولكنا نرى أمره سديداً، ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكاذبين؛ لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره، ثم وجه المؤمن قومه أن يراعوا نعمة الله عليهم - وهى الملك والظهور في الأرض - بشكر الله - تعالى - عليها وتصديق رسوله، ثم حذرهم نقمة الله - التي تعمهم جميعا - إن كذبوا موسى عليه السلام، وقد أجمل نفسه فيهم وهو يذكرهم ببأس الله ليشعرهم أن أمره يهمهم، فهو واحد منهم وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ أي: لا تغنى عنا هذه الجنود ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء، وقال فرعون لقومه - رداً على ما أشار به الرجل المؤمن -: ما أشير عليكم إلا ما أراه لنفسى من قتل موسى

درءاً للفتنة، وما أهديكم بهذا الرأى إلا طريق الصواب والصلاح، فأعاد الرجل الصالح تحذيره قومه من بأس الله في الدنيا والآخرة فقال: يا قوم إنى أخاف عليكم مثل عاقبة الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم رسلهم ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي: إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره، ثم خوفهم بعذاب الآخرة بعد أن خوفهم بعذاب الدنيا حيث قال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (وهنا إشارة إلى صفات الله " العزيز - شديد العقاب " في مطلع السورة، وكذا إليه المصير)، وسمى يوم القيامة بيوم " التناد " حيث أنه إذا قامت القيامة، وزلزلت الأرض وانشقت وماجت وارتجت، نظر الناس إلى ذلك هاربين ينادى بعضهم بعضاً، وقيل إن الميزان في ذلك اليوم عنده ملك، فإذا وزن عمل العبد فرجح ينادى بأعلى صوته: " ألا قد سعد فلان ابن فلان سعادةً لايشقى بعدها أبداً "، وإن خف عمله نادى الملك أن شقى فلان ابن فلان "، وقيل أيضاً: سمى بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ﴾ [الأعراف، الآية: ٤٤]، ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف، آية: ٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟
مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ

﴿ تَحۡزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٧، ٤٨]، **وتتجلى صفة " العزيز " في قوله تعالى:** ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٍ ﴾ **أي: فارين هاربين وما لكم من مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه،**

ومن أضله الله فلا هادى له حيث قال تعالى: ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾، **ولعل في هذه الآية إشارة خفية إلى قول فرعون:** ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ **وتلميحاً بأن الهدى هدى الله، وأن من أضله الله فلا هادى له، والله يعلم من حال الناس من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال. ثم يُذكِر الرجل المؤمن القوم بموقف آباؤهم من يوسف ومن ذريته كان موسى - عليهما السلام -، وكيف شكوا في رسالته وما جاءهم به من الآيات، فلا يكرروا الموقف مع موسى وهو يصدق ما جاءهم به يوسف فكانوا منه في شك وارتياب، ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولاً، وها هو موسى يجيء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال، والرجل المؤمن ينذر قومه هنا بشده فينذرهم بإضلال الله لهم بسبب إسرافهم وشكهم في عقيدته وقد جاءته معها البينات؛ حيث قال تعالى:** ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾، **ثم يشتد أكثر في مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين عن اتباع الحق، والذين يقتلون الناس بغير حق. ثم يخبر الله - تعالى - عن تمرد فرعون وغروره وافترائه في تكذيب موسى - عليه السلام - أنه أمر وزيره أن يبنى له قصراً عالياً من الطين** ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا ﴾

و كقوله تعالى: ﴿ فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ **أي: طرق**

السماوات وإنى لأظنه كاذباً في أن الله أرسله إليه، أو قصد أن موسى كاذباً في ادعائه أن له إلهاً غيره، وبما أن بلوغ أسباب السماوات غير ممكن لكن فرعون أبرزه في صورة الممكن تمويهاً على سامعيه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: بصنعه هذا الذي زينه لنفسه فرآه حسناً؛ أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى - عليه السلام - فهو مستحق لأن يصده الله عن السبيل. ويعقب السياق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الخيبة والخسار، فقد خسر ملكه في الدنيا بالغرق، وفى الآخرة بالخلود في النار فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾. وقال الرجل المؤمن: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ لا كما كذب موسى في قوله حين قال ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ فالحياة الدنيا زائلة فانية، وأن الآخرة هى الدار الدائمة التي لا زوال فيها ولا انتقال، فهى إما نعيم دائم أو جحيم دائم ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾، وهو بهذا يحفز قومه لعمل الصالحات والإيمان بالله حيث يكون مآلهم إلى الجنة يرزقون فيها بغير حساب، ولهذا قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، وهنا إشارة إلى معنى: (العزيز) ومعنى: (إليه المصير)، كما تتجلى صفة: (ذى الطول) في ثواب الله الكثيرالذى لا انقضاء له ولا نفاد ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، ثم تأتى دعوة الرجل المؤمن قومه إلى توحيد الله - عز وجل - في العبادة حيث يقول لهم: ما بالى أدعوكم إلى النجاة - وهى عبادة الله وحده التي تدخلكم الجنة - وتدعوننى إلى النار والشر، ثم وضح ذلك حيث قال: تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى

عبادة الله الواحد الأحد، العزيز الذي لا يغلب، الغفار لذنوب العباد، فهو يعلم كل شيء عن خلقه وذنوبهم ورغم ذلك يغفر الذنوب ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾، **حقاً إنما تدعوننى لعبادة من لا يصلح أن يعبد؛ لأنه لا يستجيب لدعاء داعيه، ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإن مرجعنا إلى الله وحده؛ فيجازى كلا بعمله، وأن المسرفين على أنفسهم بشركهم بالله لا يفارقون النار** ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾، **وستذكرون يوم القيامة صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، وحينئذ ستندمون حيث لا ينفعكم الندم، وأتوكل على الله، وأستعيذ به وأقاطعكم؛ إن الله بصير بالعباد، فيهدى من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، فنجى الله الرجل الصالح ومن آمن من قوم موسى - عليه السلام - في الدنيا من الغرق، وفى الآخرة بالفوز بالجنة.** ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ **وهو الغرق في اليم، ثم عذاب النار في الآخرة، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة وهم في القبور، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار؛ ولهذا قال تعالى:** ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ **وهنا تتجلى صفة " شديد العقاب ".**

وما يستحق التنويه هنا في القصة ما ورد من معانى وتعبيرات على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون، وقد وردت من قبل في السورة، فهو يذكر فرعون وهامان وقارون أنهم يتقلبون في البلاد، ويحذرهم يوماً مثل يوم الأحزاب، كما يحذرهم يوم القيامة الذي عرضت مشاهده في مطلع السورة كذلك، ويتحدث عن الذين يجادلون في آيات الله، ومقت الله لهم ومقت المؤمنين؛ كما جاء من قبل في السورة، ثم يعرض السياق مشهدهم في النار أذلاء صاغرين؛ يدعون فلا يستجاب لهم، كما عرض مشهد أمثالهم من قبل في السورة. فالتعبير على لسان الرجل المؤمن يكاد يكون طبق الأصل من التعبير المباشر في مطلع السورة.

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

يخبر الله - عز وجل - عن تخاصم أهل النار في النار، وفرعون وقومه من جملتهم؛ فيقول الضعفاء - وهم الأتباع - للرؤساء المستكبرين عن الإيمان واتباع الرسل :إنا كنا لكم في الدنيا أتباعاً كالخدم ننقاد لأوامركم من الكفر والضلال، فهل تتحملون عنا قسطاً من النار؟ فيقول الرؤساء: لا نتحمل عنكم شيئاً، كفى بنا ما عندنا إنا جميعاً في النار، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا، إن الله قضى قضاءً مبرماً لا مرد له بدخول المؤمنين الجنة والكافرين النار، وقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ولهذا

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴾ **فلما يئس أهل النار وأدركوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، اتجه هؤلاء وهؤلاء إلى خزنة جهنم في ذل وانكسار ليدعوا ربهم في رجاء أن يكشف عنهم شدة البلاء، أو يخفف عنهم العذاب ولو يومًا واحدًا يوما يلتقطون فيه أنفاسهم ليستريحوا، فقال لهم خزنة جهنم: أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا: بلى قالوا: فادعوا أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعوا لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ونحن منكم براء، وسواء دعوتم أو لم تدعو لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم ولهذا قالوا:** ﴿ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ ﴾.

قال تعالى:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَـٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقرر الله في هذه الآيات حقيقة ثابتة، ووعداً أكيداً لرسوله محمد وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا وفى الآخرة، بعد أن قدم لهم النموذج على ذلك في قصة موسى ومن آمن معه وفرعون وملأه، فقد نصر الله موسى ومن معه، وأغرق الله فرعون ومن معه، ويوم القيامة لا ينفع المجرمين اعتذارهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار في جهنم، وقد ظهر هذا جلياً في مشهد المجرمين وهم يتحاجون في النار، ويطلبون من خزنة النار من الملائكة أن يدعوا ربهم أن يخفف عنهم يوماً من العذاب، وقد أوتى موسى الهدى؛

وهو ما بعثه الله - عز وجل - به من الهدى والنور، وأورث بني إسرائيل بلاد فرعون وأمواله وأرضه بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله، كما ورثوا التوراة بما فيها من الهدى والذكر لأولى الألباب، فاصبر يا محمد (صلي الله عليه وسلم) على أذى قومك وتكذيبهم وجدالهم في آيات الله بالباطل، إن وعد الله حق بالنصر لك عليهم، وستكون العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد، وليكن زادك وزاد أمتك في طريق الصبر الطويل الشاق؛ استغفار للذنب، والتسبيح بحمد ربك في كل وقت وحين، إن الذين يخاصمون ويجادلون في الآيات المنزلة بلا حجة ولا برهان من الله ما في قلوبهم إلا تكبر وتعاظم يمنعهم من اتباعك، وما هم بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله، فاصبر عليهم وتحصن بالله من كيدهم، فإن الله سيدفع عنك شرهم؛ لأنه هو السميع لأقوالهم العليم بهم. والاستعاذة بالله في مواجهة الكبر توحي باستبشاعه واستفظاعه، فالإنسان إنما يستعيذ بالله من الشيء الفظيع القبيح الذي يتوقع منه الشر والأذى... وفى الكبر هذا كله، وهو يتعب صاحبه ويتعب الناس من حوله، وهو يؤذى الصدر الذي يحيك فيه ويؤذى صدور الآخرين، فهو شر يستحق الاستعاذة منه.

قال تعالى:

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾
كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ
ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٦٥﴾ ۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ
ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم
مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ
ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى
وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ
يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ
يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ
ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن
دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ
ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا
كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى
ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ
نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أتى ذكر الذين يجادلون ويخاصمون في آيات الله، ويكذبون رسول الله من مشركي قريش ثلاث مرات، ومرة في قصة موسى - عليه السلام -، و المرات الأربع في هذه السورة هي: -

١ - الموضع الأول حيث قال تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ

بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾.

٢ ـ الموضع الثانى في قصة موسى في قول الرجل الصالح: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾.

٣ ـ الموضع الثالث حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾.

٤ ـ والموضع الرابع في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾ **وفى المرة الثالثة ينكر مشركو قريش البعث فيرد عليهم القرآن بالبرهان، ويفند أباطيلهم، فالله الذي خلق السموات والأرض ـ وهى أكبر من خلق الناس ـ لقادر على أن يعيد الخلق وهو أيسر عليه** ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ **كما قال تعالى:** ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ **[الأحقاف، الآية: ٣٣] ويبكت المشركين المكذبين بقوله: " كما لا يستوى الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ـ وهم المجادلون بالباطل ـ والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، كذلك لا يستوى المؤمنون والكافرون، نفت الآية [٥٧] العلم عمن عطل عقله وجمد فكره فلم ينظر في آيات الله نظرة تأمل حيث قال تعالى:** ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ **. جاءت الآية [٥٨] تبرز هذا المعنى بالمقارنة بين الأعمى والبصير، وبين المحسن والمسيء؛ ليتبين الحق من الباطل.**

ثم أتى القرآن بالخبر اليقين؛ وهو مجيء الساعة، ولكن أكثر الناس من الكفار والمعاندين لا يصدقون بوقوعها لقصور أنظارهم،

وهنا يتجلى المعنى البارز في مطلع السورة: ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ **كما يظهر معنى** ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ **ويتضح معنى:** ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ **في الآية التالية:** ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾**.**

فمن فضل الله - تبارك وتعالى - وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة، والذين يستكبرون عن عبادته أو دعائه وإفراده بالعبادة سيدخلون جهنم صاغرين، ثم يستمر السياق في مناقشة المشركين في قضية التوحيد بسرد بعض الآيات الدالة على قدرة الله ووحدانيته، ممايلزم منه إفراده بالعبادة والشكر؛ فبينت الآيات فضل الله على عباده بتنظيم أوقاتهم بين الراحة والسكون، وبين العمل والحركة؛ بجعل الليل مظلماً والنهار مضيئا، وهذا الفضل من الله يعم الناس جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، بتدبير أحوالهم وتنظيم أوقاتهم، ولكن أكثر الناس لا يؤدون حق الشكر لهذه النعم؛ حيث قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾**. ثم أتبع ذلك بقوله تعالى:** ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ **أي: الذي تفضل عليكم بهذه النعم هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه، فكيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً؛ بل هي مخلوقة منحوتة، كذلك فعل من كان قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان، وجحدوا حجج الله وآياته** ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾**، وتمضي الآيات في تعداد آيات الله وبيان فضله المتعلق بالمكان، بعد بيان فضله المتعلق بالزمان في الآيات السابقة؛ فهو جعل لكم الأرض مستقراً بساطاً مهاداً تعيشون عليها، وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد**

بكم، وجعل السماء سقفاً محفوظاً تدفئكم شمسها، وتهديكم نجومها، ويمطركم سحابها، وخلقكم في أحسن صورة، ورزقكم من المآكل والمشارب في الدنيا، ذلكم الله ربكم الذي تنزه عن النقائص وله صفات الكمال، وهو حى دائم متفرد بالحياة الذاتية لا إله إلاهو، لا نظير له ولاعديل له، فادعوه موحدين له، مقرين بأنه لا إله إلا هو، الحمد لله رب العالمين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وقل يا محمد لهؤلاء المشركين المجادلين بالباطل: إن الله - عز وجل - ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقد بيّن - تبارك وتعالى - أنه لا يستحق العبادة أحد سواه؛ فهو الخالق بدءاً من آدم من تراب ثم من مَنِى، ثم من قطعة عالقة بجدار الرحم فيها الخطوط الأولى للأعضاء، ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً، ثم ينسأ أعماركم ويؤخرها؛ لتبلغوا أشدكم من الكمال والقوة، ثم يمد في آجالكم لتكونوا شيوخاً، وهو وحده الذي يقلبكم في هذه الأطوار، وعن أمره وتدبيره يكون ذلك كله، ومنكم من يتوفى من قبل الشيخوخة بعد بلوغ أشده أو قبله، جعلكم الله على هذا النظام وخلقكم على هذا النمط؛ لتبلغوا وقتاً مسمى عنده، وهو يوم البعث، وقيل يوم الموت، ألا يدل هذا التنقل في الأطوار المختلفة من فنون الحكم والعبر على أنه - تعالى - قادر على بعثكم ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ

تَعۡقِلُونَ ﴾. وهو الذي يحيى ويميت وهو المتفرد بذلك. ثم يقول: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين لآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل! كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، وهم الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا من الهدى والبيان،

وهم إذ كذبوا بالقرآن وبمحمد (صلي الله عليه وسلم)، إنما هم يكذبون بهذا كل ما جاء به الرسل، فهى عقيدة واحدة تتمثل في أكمل صورها في الرسالة الأخيرة، ومن ثم فهم كذبوا بكل رسالة وبكل رسول؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ ولهذا يتوعدهم الله بالعذاب الشديد في الآخرة، فقال عز من قائل: ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴾ فالسلاسل المتصلة بالأغلال بأيدى الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم - والحميم: هو الماء الذي بلغ الغاية في الحرارة - ثم يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم ؟ قال الكافرون: غابوا عنا فلم ينفعونا ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ وهذا لا ينافى ما يشعر بأن آلهتهم مقرونون بهم في النار، كما ورد في مواضع أخرى من القرآن؛ لأن للنار طبقات ولهم فيها مواقف، فيجوز غيبتهم عنهم في بعضها واقترانهم بهم في بعض آخر، ثم جحدوا عبادتهم فقالوا: ﴿ بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗا ﴾ فهم يفزعون إلى الكذب لحيرتهم واضطرابهم، ثم تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا - بغير الحق - ومرحكم وإشراككم وبطركم حتى نسيتم الآخرة، واشتغلتم بالنعمة عن المنعم؛ حيث قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴾ **ثم يقال لهم: ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس المنزل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد** ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾، **وفى هذه الآيات تنبيه لصفة** ﴿ **شديد العقاب** ﴾. **ثم يقول الله - تعالى - مسلياً لرسوله،**

وآمراً له بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له ولمن اتبعه من المؤمنين بالنصر عليهم، فأقر أعينهم بالنصر عليهم في " بدر " و " فتح مكة " وسائر جزيرة العرب في حياته ﴿ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ **أي: نميتنك قبل أن تنتصر عليهم وننتقم منهم.** ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ **فإلينا - لا إلى غيرنا - يرجعون يوم القيامة؛ فنجازيهم على أعمالهم ونعذبهم أشد العذاب. فإن قيل: إن الله - تعالى - يعلم أنه سينصره في حياته، فلماذا لم يصرح بنصره على القطع ؟ فالجواب: إن أهل مكة كانوا يتمنون موت النبى (صلي الله عليه وسلم) ويسعون فيه، فالله رد عليهم بذلك مجاراة لهم، ليفهمهم أن موت محمد لا يعفيهم من العذاب الموعود.**

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ (٧٨) ﴾.

في هذه الآية رد على قريش في طلبهم من الرسول معجزات خارقة للعادة - غير التي أتاهم بها، فبينت هذه الآية أن مجيء الآيات في عهد جميع الرسل لله وحده، ولقد أرسلنا رسلاً كثيرين، منهم من أوحينا إليك خبرهم والمعجزات الدالة على صدقهم فيما

جاءوا به، وقصصهم مع قومهم، وكيف كذبوهم ثم كانت النصرة والعاقبة لرسله، ومنهم من لم نقصص عليك خبرهم - وهم أكثر ممن ذكر ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين في الدنيا أو يوم القيامة ﴿ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فينجى المؤمنين، ويهلك ويعذب المكذبين ويخسر هنالك المبطلون، ولم يعد هناك مجال لعمل ولا لتوبة ولا لرجعة بعد قضاء الله الأخير.

قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

ويقول الله - تعالى - ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام، ليأكلوا بعضها وليركبوا بعضها، وليبلغوا عليها أمراً ذا بال يهتمون به؛ كجر الأثقال وحملها من بلد إلى بلد في البر، والفلك التي تحملهم في البحر، ويريهم الله حججه وبراهينه في الآفاق وفى أنفسهم، ودلائل قدرته ووحدانيته، فأىّ آية من هذه الآيات الباهرات التي ذكرها لهم ينكرونها حتى أشركوا به؟ فهي آيات ظاهرة للعيان ولا يمكن لذي عقل أن ينكرها.

قال تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ

﴿٨٥﴾.

يخبر الله - تعالى - عن الأمم المكذبة بالرسل من قديم الدهر وما حل بهم من العذاب الشديد - مع شدة قوتهم وكثرة عددهم وما جمعوه من الأموال، وتنبئ بذلك آثارهم فما أغنى عنهم ذلك شيئاً؛ لأنهم لم يصدقوا رسلهم ولم يلتفتوا إليهم، واستغنوا بما عندهم من علوم الدنيا واستهزؤوا بعلم الله الذي جاء به الأنبياء، فنزل بهم من بأس الله مالا قبل لهم به، وأحاط بهم العذاب الذي أخبرهم به رسلهم، وكانوا يستهزئون ويسخرون منه ويستبعدون وقوعه، فلما رأت تلك الأمم عقابنا الذي أوعدتهم به الرسل، وعاينوا عذاب الله الشديد الذي نزل بهم، قالوا: صدقنا بالله وحده وأنكرنا الأصنام، والحكمة الإلهية قضت ألا يقبل الإيمان حين نزول العذاب، وذلك مثل ما حدث لفرعون، فلقد حكى القرآن عنه أنه قال - حين أدركه الغرق: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [سورة يونس، الآية: ٩٠] فرد الله عليه فقال: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [سورة يونس، الآية: ٩١، ٩٢]، ولم يقبل الله من فرعون هذا الإيمان الذي اضطر إليه حين أدركه الغرق، وتلك التوبة التي كانت حين حضره الموت، ومات كافراً مهاناً، وأمضى الله فيه سنته، ولن تجد لسنة الله تبديلاً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ أي: أن هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا تقبل توبته.

* * *

سورة فصلت

مختارات من التفاسير
في الحواميم

سورة فصلت

نزلت هذه السورة بعد غافر، وآياتها أربع وخمسون، وتسمى سورة " حم السجدة " وسورة " الأقوات "، وهى قوية الصلة بسورة غافر؛ حيث يقول الله - تعالى - تهديداً وتقريعاً لقريش في الآية [٨٢] من سورة غافر : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾، **وخصهم بالخطاب في قوله تعالى:** ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ **الآية [١٣]، ثم بين - سبحانه كيفية إهلاكهم.**

تعالج السورة قضية التوحيد، والوحي، أو فضل القرآن الكريم (وهو محور السورة الرئيسي) وفيه تفصيل من الله - تعالى - ورحمته وإنزاله الكتاب بلغة عربية واضحة البيان، والآيات الدالة على وحدانيته من خلق الأرض والسماوات، والليل والنهار، والشمس والقمر والأجرام السماوية، وإحياء الأرض بعد موتها؛ ولهذا سميت السورة بهذا الاسم، ثم قضية الإيمان بالآخرة، والدعوة إلى الله.

فعن قضية التوحيد تأتى الآيات في مطلع السورة ما يؤكده ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ **و**﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ **ثم تحكى السورة عن " عاد وثمود " أن رسلهم قالت لهم هذه الحقيقة ذاتها** ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾

ويرد في وسط السورة الحقيقة ذاتها ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ **وفي نهاية السورة يرد عن الحقيقة ذاتها** ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾.

أما عن قضية الوحى وفضل القرآن فبدئت به السورة ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ **وفى وسط السورة تأتى الإشارة عن استقبال المشركين لهذا القرآن** ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ **ثم الرد على أقوال المشركين في القرآن** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾، **وتختم السورة بمثل ما بدئت به من التنويه بالقرآن الكريم** ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

وعن قضية الآخرة يرد تهديد للذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ **وفى نهاية السورة يأتى التنويه عن ارتياب المشركين في يوم القيامة** ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾.

وأما عن طريق الدعوة إلى الله فيرد قوله - تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾.

قال تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾

﴿ حمٓ ﴾ **تقدم الكلام في تفسير هذه الحروف المقطعة في أول سورة غافر،** ﴿ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ **أي: هذا القرآن المجيد منزّل من الرحمن الرحيم، وإضافة التنزيل إلى " الرحمن الرحيم " من بين أسماء الله - تعالى - إشارة إلى أن نزوله من أكبر النعم؛ بما فيه من تشريع وخير للبشرية، ومصالح دينية ودنيوية، واقع بمقتضى الرحمة الربانية،** ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ **أي: كتاب بُينت معانيه بما فيها من وعد ووعيد وشرائع وعقائد وقصص وأخلاق وعلوم، ووضحت أحكامه في غاية البيان والكمال وقوله تعالى:** ﴿ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ **أي: لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربى المبين، ولو كان غير عربى لما علموه.** ﴿ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ **فالقرآن تارة يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً،**

وتـارة ينـذر الكـافرين بمـا أعد لـهم مـن عذاب شـديد، فـأعرض أكثر المشركين من قريش وانصرفوا عن تـدبره وقبولـه والإصـغاء إليه واتباعه، فلم ينتفعوا به مـع كونـه نـزل بلغتهم، وقـال الكـافرون لرسـول الله ـ حـين دعـاهم إلـى الإيمـان بـالله وحـده وتـرك عبـادة الأصنام والأوثان ـ : قلوبنـا فـي أغطيـة متكاثفـة لا ينفذ إليهـا شـيء ممـا تـدعوننا إليـه، وفـى آذاننـا صـمم، ومـن بيننـا وبينـك يـا محمـد حاجزاً يمنع أن يصل إلينا شيء مما تقول، فاعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا، فنحن مستمرون على ديننـا. وهذا نموذج ممـا كان يلقاه صاحب الدعوة الأول (صلي الله عليـه وسلم) وقد مضـى في طريقه للدعوة إلى الله والاستقامة على الطريق، ولـم ييـأس ولـم يستبطئ وعد الله لـه ووعيده للمكذبين، واستمر في إنذار المشركين كمـا أمـره الله أن يفعل، والأمـر بعد ذلـك لله، ولـيس لـه مـن الأمـر شيء.

قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

فقل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين: ما أنـا إلا بشر مـثلكم، لست مـن الملائكـة ولست جنيـاً لا يمكـن التلقـى منـه والفهـم عنـه، ولكن الله خصنى بالرسـالة والـوحى، وأمرنـى بـدعوتكم إلـى توحيد خـالقكم وموجـدكم، والـذى قامـت الأدلـة العقليـة والشـرعية علـى وحدانيته ووجوده، فتوجهوا إليه بالاستقامة على التوحيد والإيمان، والإخلاص في الأعمال، واسألوه المغفرة لسالف الذنوب، ثم يتوعد بالويل للمشركين وعذاب أليم بسبب شركهم،

أي: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [سورة الأعلى: ١٤، ١٥]، فالمراد بالزكاة هنا طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، كما أن من بين أوصاف المشركين منع الزكاة. وقوله تعالى: ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ فامتناعهم عن الزكاة، وبخلهم بها لإنكارهم الآخرة واستغراقهم في الدنيا، وفى هذا أيضا حث للمسلمين على إخراج الزكاة وتخويف شديد من منعها. ثم ثنى القرآن بالبشارة للذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾ أي: غير مقطوع، كقوله تعالى: ﴿ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [سورة الكهف، آية: ٣] وكقوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [سورة هود، آية: ١٠٨]، والآية الكريمة - كما روى عن السُّدى - نزلت في المرضى والزمنى إذا عجزوا عن كمال الطاعات كتب لهم من الأجر - في المرض والهرم - مثل الذي يكتب لهم وهم أصحاء شبان ولا تنتقص أجورهم، وذلك من عظم كرم الله ورحمته (التفسير الوسيط: ٦٧٠ / ٣)، وعن أبى موسى الأشعري - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) :(إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحا). (أخرجه البخارى).

قال تعالى:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ

سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

ذكر الله - تعالى - في هذه الآيات دلائل قدرته ووحدانيته، ويمضى الرسول في دعوته فيكشف للمشركين عن فداحة جرمهم بشركهم بالله، فلم يتفكروا في خلق السماوات والأرض وسلطانه في فطرة هذا الكون من السماوات والأرض، و قل لهم يا محمد: " إنكم إذ تكفرون إنما تأتون أمراً منكراً، إنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض وجعل فيها رواسى من فوقها، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وخلق السماوات ونظم أمرها، وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً، والذى أسلمت له السماوات والأرض قيادهما طائعتين، وأنتم بعض سكان هذه الأرض تستكبرون وتجعلون له أنداداً.

يذكر الله خلق الأرض في يومين، ثم تكونت فيها الجبال، وقدرت فيها الأقوات في أربعة أيام؛ وهى أيام من أيام الله لا يعلم إلا الله مداها، وليست كأيام الأرض فهى مقيسة بمقياس آخر لا نعلمه، غير مقياس أيام الأرض التي تقاس بدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس.

وفى هذه الآية فصّل الله ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٩] **أما قوله تعالى:**﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾ **[النازعات: ٢٧] ففى هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء - أي:**

إخراج مائها ومرعاها - أما خلق الأرض فكان قبل خلق السماء، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، أي أن الله خلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السماوات في يومين ﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ **أي: لمن أراد السؤال عن ذلك، أو على وفق مراد من له حاجة إلى رزق فإن الله - تعالى - قدر له ما هو محتاج إليه، مثل قوله تعالى:** ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ **[سورة إبراهيم: ٣٤]، أما قوله تعالى:** ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ﴾ **فالسماء الدنيا هى كذلك ليس لها مدلول واحد محدد، فقد تكون أقرب المجرات إلينا وهى المعروفة بسكة التبانة، وقد يكون غيرها مما ينطبق عليه لفظ سماء، وفى السماء النجوم والكواكب المنيرة كالمصابيح، وحفظاً من الشياطين** ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ **وهل يقدر خلق هذا كله، ويمسك الوجود كله، ويدبر الوجود كله إلا القوى العزيز القادر، والعليم الخبير بالموارد والمصادر.**

فكيف يكون موقف الذين يكفرون بالله ويجعلون له أنداداً ؟ كيف والسماء والأرض تقولان لربهما: " أتينا طائعين " وهذا الإنسان الضعيف العاجز - الذي يدب على الأرض - يكفر بالله في تبجح واستهتار؟.

قال تعالى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

فإن أعرض قومك يا محمد دعوتك لهم بالتوحيد؛ فأنذرهم بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فقد طلبوا أن ينزل ربهم عليهم ملائكة من السماء بدلاً من البشر - مثل قومك، ثم فصّل ما حدث لقوم عاد؛ حيث استكبروا واغتروا بقوتهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ **فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته، وعصوا رسله، فأرسل عليهم ريحاً صرصراً شديدة وقوية الهبوب، وقيل: باردة، وقيل: لها صوت عظيم، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قوتهم، وقوله تعالى:** ﴿ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ **أي: متتابعات حتى أبادهم الله عن آخرهم، واتصل بهم خزى الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى:** ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ **أي: أشد خزياً لهم.** ﴿ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ **أي: في الآخرة كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب، ثم أتى ذكر ثمود فقال تعالى:** ﴿ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ **أي: دللناهم الطريق المستقيم فاختاروا الضلالة على الهدى، وخالفوا نبيهم وعقروا ناقة الله التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم صالح - عليه السلام -، وقد تكون هذه إشارة إلى اهتدائهم بعد آية الناقة، ثم ردتهم وكفرهم بعد ذلك، وإيثارهم العمى على الهدى، والضلال بعد الهدى؛ عمى أشد العمى، فأخذتهم صاعقة العذاب المهين، ونجّا الله منهم الذين اتقوا واتبعوا الهدى مع نبيهم صالح - عليه السلام.**

قال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والآن، وقد كشف لهم عن سلطان الله في فطرة الكون؛ من خلق السماوات والأرض، وطاعة الكون كله، وسلطانه في تاريخ البشر بعذاب الكافرين المخالفين لرسله ونجاة المتقين من عباده، يطلعهم على سلطانه في ذوات أنفسهم التي لا يملكون منها شيئاً، ولا يعصمون منها شيئاً من سلطان الله، حتى سمعهم وأبصارهم وجلودهم تطيع الله وتعصيهم في الموقف المشهود، وتكون شاهدة على أعمالهم، ويصور الله مشهد الكافرين يوم الحشر؛ حيث تجمع زبانية جهنم أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم كالقطيع وهم يتدافعون، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ **حتى إذا ما وقفوا على النار تشهد عليهم أعضاؤهم بما كانوا يعملون في الدنيا من معاصى** ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ **ولاموا أعضاءهم، ويسألوهم لم شهدتم علينا؟ فتجيبهم أعضاؤهم فيقولون:** ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ **فإليه المنشأ وإليه المصير، ولا مفر من قبضته في الأولى والآخرة،** ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ **أي: تقول لهم الأعضاء والجلود - حين يلومونها على الشهادة**

عليهم - ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه؛ بل وكنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى، ولا تبالون منه - في زعمكم - لأنكم كنتم تعتقدون أنه لا يعلم جميع أفعالكم،

وهذا الظن الفاسد هو الذي جعلكم من الخاسرين لأنفسكم وأهليكم ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ، **فليصبروا على النار - إن استطاعوا - فإنه لا مكان لهم إلا النار، ولو طلبوا الرجوع إلى الدار الدنيا فهذا أصبح مستحيلا، ولا يسمح لهم أن يبدوا أعذاراً، فما لهم من أعذار، ولا تقال لهم عثرات:** ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾.

قال تعالى:

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ثم يكشف الله لهم عن سلطانه في قلوبهم، وهم بعد في الأرض يستكبرون عن الإيمان بالله، فقد قيض الله لهم - بما اطلع على فساد قلوبهم - قرناء سوء من الجن ومن الإنس، يزينون لهم السوء لتحق عليهم كلمة العذاب كما حقت على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الإنس والجن فأصبحوا من الخاسرين ﴿

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾، **كقولـه تعـالى:** ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ **[الزخرف: ٣٦، ٣٧].**

وكان من تزيين القرناء لهم دفعهم إلى محاربة القرآن، حين أحسوا بما فيه من سلطان ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ **أي أنهم تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا القرآن وينقادوا لأوامره، وإذا تلاه رسول الله لا يسمعوا له، بل يلغوا فيه بالمكاء والصفير، وكان هذا مسلك كفار قريش، وأمر الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين بخلاف ذلك؛ فقال عز من قائل:** ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ **[الأعراف:٢٠٤] ثم قال - تعالى - منتصراً ممن عاداه من أهل الكفر** ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ **ثم يعيد القرآن تصوير مشهد الكفار وهم في النار، وهم يطلبون من الله أن يريهم قرناءهم من الإنس والجن - الذين زينوا لهم أعمالهم - تحت أقدامهم في النار:** ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

ثم عطف الله - تعالى - بمشهد المؤمنين الذين أخلصوا العبادة لله، وعملوا بطاعة الله على ما شرع لهم، واستقاموا على شهادة لا إله إلا الله، وعلى أداء فرائضه التي فرضها عليهم، بأنهم تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين: ألا تخافوا - مما تقدمون عليه من عمل الآخرة - ولا تحزنوا - على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أودين - فإنا نخلفكم فيه، ويبشروهم بالجنة، وتقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: " نحن كنا أولياؤكم - أي: قرناؤكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله - وكذلك نكون معكم في الآخرة؛ نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونُؤمِنّكُم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم ونوصلكم إلى جنات النعيم، ولكم فيها ما تشتهيه أنفسكم، ولكم فيها كل ما تطلبون ضيافة وعطاءً وإنعاماً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾، وهى بشرى للداعية إلى الله بشرط العمل الصالح كما سيأتى في الآية التالية.

قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

أول من دعا إلى الله هو رسولنا (صلي الله عليه وسلم) ولنا فيه قدوة حسنة في الصبر على الدعوة، وكان قد بدأ الله - تعالى - السورة بوصف جفوة المدعوين وسوء أدبهم وتبجحهم النكير، ولذا فالنهوض بواجب الدعوة إلى الله في مواجهة التواءات النفس البشرية أمر شاق، ولكنه شأن عظيم، وقيل: المقصود من الآية:

المؤذنون الصالحون، فإذا قال: " حى على الصلاة "؛ فقد دعا إلى الله، فإذا صلى ركعتين بين الآذان والإقامة؛ فقد عمل صالحاً، والآية عامة في المؤذنين وغيرهم، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي: لا تستوى الحسنة - وهى الدعوة إلى الله، والاستقامة على شهادة لا إله إلا الله، وأداء فرائضه - ولا السيئة - وهى اللغو في القرآن عند تلاوته، وعدم العمل به والانقياد لأوامره - ففرق عظيم بين هذه وتلك. ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي: الدعوة إلى الله بالحسنى؛ فيكون بينك وبين الناس مودة، وادفع من أساء إليك بالإحسان إليه؛ لأنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه قريب لك من الشفقة والإحسان إليك، وهذه الدرجة - درجة دفع السيئة بالحسنة - درجة عظيمة تحتاج إلى صبر وإلى حظ عظيم يتفضل به الله على عباده الذين يحاولون فيستحقون ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ولذلك أمر الله المؤمنين والداعين إلى الله بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم، وإذا وسوس لك الشيطان - بدفع السيئة بالسيئة - فاستعذ بالله؛ فهو سميع لك، وعليم بنيتك وبصلاحك؛ ليكف عنك كيد الشيطان ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

قال تعالى:



وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا
لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩
﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ
وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن
يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا
قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ
جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ
وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وفى مجال الدعوة إلى الله فصّل الله - تعالى - في كتابه الكريم آياته الكونية الدالة على وجوده ووحدانيته، وهى خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، والشمس بشعاعها، والقمر بضيائه، وهى آيات معروضة للأنظار؛ يراها العالم والجاهل، ومن المشركين من كان يسجد للشمس والقمر مع الله، فنبه الله - تعالى - على أن الشمس والقمر مخلوقان وعبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ **فإن استكبروا - بعد عرض هذه الآيات - فلن يقدم هذا أو يؤخر،** ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ **من الملائكة المقربين وغيرهم مما لا نعلم عنهم شيئاً - وهم أرفع وأكرم، لا يستكبرون كما يستكبر أولئك المنحرفون، ولا يَفْتَرون عن تسبيحه ليلاً ونهاراً، وكذلك الأرض التي منها خرجوا وإليها يعودون؛ تقف خاشعة لله وهى**

تتلقى منه الحياة، فخشوع الأرض هنا هو سكونها قبل نزول الماء عليها ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ وكأنما هى حركة شكر وصلاة على أسباب الحياة، وأنبتت من كل زوج بهيج، إن الذي أحياها لقادر على إحياء الموتى، ثم يجيء تهديد شديد ووعيد للذين يلحدون في آيات الله الكونية والقرآنية فيكفرون بها أو يغالطون فيها، سيجزيهم الله على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ لا يستويان، ثم قال - عز وجل - تهديداً للكفار ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، ولبشاعة الجرم - وهو الإلحاد في آيات الله القرآنية والكفر بها - جاء باسم " إن " وهو ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ... ﴾ ووصف الذكر ولم يأتِ بالخبر،

كأنما ليقال: إن فعلتم ذلك فلا يوجد وصف ينطبق عليها ويكافئها لشدة بشاعتها، فإن الذين يلحدون في آيات الله وكفروا بالقرآن، وهو كتاب عزيز منيع الجناب لا يرام أن يأتى أحد بمثله، ولا يأتيه الشيطان فينقص منه أو يزيد منه شيئاً، أو ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، ومحمود في جميع ما يأمر به وينهى عنه، وقد قال كفار قريش إن محمداً ساحر، وقالوا كاهن، أو يعلمه بشر، وكل ذلك افتراء، وهذا القول بعض ما كان تقوله الأمم السابقة لرسلهم، فاصبر يا محمد على أذى قومك كما صبر الرسل من قبلك على قومهم، وإن ربك لذو مغفرة لمن تاب إليه، وذو عقاب أليم لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . ولما ذكر الله - تعالى - القرآن وفصاحته وبلاغته وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال تعالى:

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩ ﴾ [الشعراء ١٩٨، ١٩٩] **أي: كذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد** ﴿ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ ﴾ **أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب؟، ولأنكروا ذلك فقالوا أأعجمى وعربى، أي: كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه ؟ قل يا محمد: إن هذا القرآن هدى لمن آمن به، وشفاء لما في الصدور من الشكوك، والذين لا يؤمنون به لا يفهمون ما فيه، وهو عليهم عمى، أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال تعالى:** ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ **[الإسراء، آية: ٨٢]. وبهذه المناسبة يتضح أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد متعلق بعضه ببعض،**

وقد حكى - تعالى - عن المشركين في أول السورة أنهم قالوا: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾ **فرد - تعالى - عليهم هنا: بأنه لو أنزل هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسل كلام أعجمى إلى قوم عرب، ولصح لهم أن يقولوا:** ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ **ولذلك قال تعالى:** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ **أي: بعيد من قلوبهم.**

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨ لَّا

يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾.

يقول الله - تعالى - مسلياً نبيه محمداً (صلي الله عليه وسلم) : لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك؛ فلقد أعطينا موسى التوراة فاختلف فيها قومه ما بين مصدق لها ومكذب ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ **أي إن هؤلاء الكفار لفى شك من القرآن، لتبلد عقولهم وعمى أبصارهم، ولولا أن الله حكم بتأخيرالحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة لعذبهم وأهلكهم في الدنيا. من عمل صالحاً يعود نفع ذلك على نفسه، ومن أساء إنما يرجع وبال ذلك عليه** ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ **أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، ولما كان الجزاء يكون يوم القيامة؛ فكأن سائلا قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟ فكانت الآية "** إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ **" أي: إليه - تعالى - وحده علم وقت الساعة لا يعلمه غيره، وقوله تعالى:** ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ **أي: وما تخرج ثمرة من الثمرات من غلافها، ولا تحمل أنثى جنيناً في بطنها ولا تلده إلا ملتبساً بعلمه تعالى، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.**

ويوم يناديهم الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق: أين شركائى الذين عبدتموهم معى؟ ﴿ قَالُوٓا ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ **أي: أعلمناك - أي ليس أحد منا يشهد اليوم بأن لك شريكاً.** ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ **أي: وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من الآلهة،** ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ **أي: لا محيد لهم من عذاب الله كقوله تعالى:** ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣]، **لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير - وهو المال والصحة وغير ذلك، وإن مسه الشر - وهو البلاء والفقر - يقنط من روح الله، ويظن أنه لن يمسه خير بعد ذلك، وإن أصابه خير ورزق بعد شدة ألمّته؛ ليقولن هذا بسعيى واجتهادى، وإنى كنت أستحقه من ربى، ويشك في قيام الساعة** ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت، آية: ٥٠] **أي: وعلى فرض أن القيامة حاصلة، فليحسنن إلى ربى كما أحسن إلىَ في الدنيا، ثم يتوعد الله - عز وجل - من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال حيث قال** ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ **قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين للقرآن الكريم** ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ **أي: كيف يكون حالكم عند الذي أنزله على رسوله** ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ **إستفهام إنكارى بمعنى النفى، أي: لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم،** ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ **أي: سنظهر لهؤلاء المشركين دلالاتنا وحججنا على أن القرآن حق منزل من عند الله؛ آيات كونية في الآفاق كالشمس والقمر والنجوم والأشجار، وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية، وحتى في أنفسهم - التي بين أضلعهم - من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، وقيل إن الآيات في الآفاق من الفتوحات**

وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، وقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ ﴾ **أي: في شك من قيام الساعة** ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴾ **أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته، وتحت طى علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، و لا إله إلا الله.**

* * *

سورة الشورى

مختارات من التفاسير

في الحواميم

سورة الشورى

هـذه السـورة مكيـة مـا عـدا الآيـات " ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧ " فمدنية، ونزلت بعد سورة فصلت، وآياتها ثلاث وخمسون، وتعالج قضية التوحيد الخالص، ومحور السورة الرئيسى الذي تدور حوله هو الوحى والرسالة، فبدأت بالوحى من الله الذي له ملك ما في السماوات والأرض إلى الأنبياء جميعاً - ومنهم خاتم الأنبياء، وشرع للناس الدين الواحد الذي أرسله لجميع المرسلين - وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وفى سياق السورة تهديد ووعيد أكيد للمشركين المكذبين بالقرآن الكريم والمنكرين للبعث، وصور موقفي المؤمنين والظالمين يوم القيامة، ثم تنتهي السورة كما بدأت بمقامات الوحي الإلهي، وفضل الله - سبحانه وتعالى - على نبيه محمد (صلي الله عليه وسلم) بإنزال القرآن عليه نور وهدى لأمته.

سميت السورة بهذا الاسم لمكانة الشورى في الإسلام، وتعليماً للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على منهج الشورى؛ لما له من أثر عظيم في حياة الفرد والمجتمع ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾.

قال تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾.

يسير سياق السورة منذ البداية في خط الوحدانية، فيقرر القرآن وحدة مصدر الوحى في الأولين والآخرين - وهو الله العزيز الحكيم - ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾، **ثم يستطرد السياق في صفة الله " العزيز الحكيم " مقرراً وحدانية المالك لما في السماوات والأرض، واستعلاءه وعظمته على وجه الانفراد** ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِىُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾، **فكما أنزل إليك هذا القرآن؛ كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك الله؛ العزيز في انتقامه، الحكيم في أقواله، وهو المتصرف الأوحد في ملكه وخلقه، والجميع عبيد له وتحت قهره، وهوالعلى العظيم، ثم يستطرد السياق استطراداً آخر في وصف حال الكون كله تجاه قضية الإيمان بالمالك الواحد، وتجاه الشرك الذي يشذ به بعض الناس** ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِى ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴾ **تكاد السماوات - على ضخامتها وجلالها - تتشقق من جهتها العلوية، فما ظنك بجهتها السفلية وهى أولى بالتشقق، وذلك هيبة من عظمته وعزته، والملائكة ينزهونه عن كل نقص، ويستغفرون لأهل الأرض مما يقع في الأرض من معصية وتقصير، فبعد وصف الله - سبحانه وتعالى - بالعزة والحكمة جاء هنا وصفه بالمغفرة والرحمة؛ فهو الغفور لذنوب عباده، والرحيم بهم، فما من مخلوق إلا هو مغمور في فيض رحمته، فلا يجب أن تدعوا مع الله شريكاً؛ فهو الحى الواحد المتفرد بالعبادة والدعاء، وهذا هو لب المعنى الذي تدور في فلكه السورة، ويقول الله - تعالى - : " إنك يا محمد لست حافظاً لأعمال الذين اتخذوا لهم من دونه شركاء، وجعلوا له من خيالهم أو من**

خلقه أنداداً؛ فهو حافظ عليهم أعمالهم، ومحصيها لهم؛ ليحاسبهم عليها يوم القيامة وليس أمرهم موكول إليك، ولست مسؤولاً عمن آمن وعمن لم يؤمن فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾.

أعاد تأكيد المعنى السابق في سورة " غافر " من أن الله أوحى إلى رسوله قرآناً عربياً واضحاً ومفصلاً؛ لينذر أهل مكة ومن حولها من العرب من يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ثم يفترق فيه الناس إلى فريق في الجنة وفريق في النار، وهو كائن لا محالة، ولو شاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحد سلوكهم فتوحد مصيرهم، ولجعلهم كلهم مطيعين كالملائكة، أو عاصين كالشياطين؛ ولكنه خلق الإنسان لوظيفة الخلافة في الأرض وجعل له استعدادات خاصة بجنسه، استعدادات يجنح بها ومعها فريق إلى الهدى والنور والعمل الصالح، ويجنح بها ومعها فريق إلى الضلال والظلام والعمل السيئ، وينتهي في النهاية المقررة لهذا السلوك إلى الجنة أو إلى النار، ويكون ذلك بمشيئته تعالى، فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة؛ بل جعلهم فريقين تبعاً لاختيارهم بعد ما أرسل إليهم رسله - مبشرين ومنذرين - فيتأثر بعضهم بالإنذار؛ فيصرفون اختيارهم إلى الحق فيوفقهم الله - تعالى - إلى الإيمان والطاعات، ويدخلهم في رحمته، ولا يتأثر به الآخرون ويتمادون في غيهم؛ فيبقون في الدنيا على ما هم عليه من الكفر فينتهون في الآخرة إلى السعير من غير ولي يلي أمرهم،

ولا نصير يخلصهم من العذاب، وقيل في ختام الآيـة : ﴿ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ولـــم يقـل: " ويـدخل مـن يشـاء فـي عذابـه " للإشـارَة بـأن الإدخـال فـي العذاب مـن جهـة الـداخلين بموجـب سـوء اختيـارهم - لا مـن جهتـه تعالى، كما في الإدخال في الرحمة.

قال تعالى:

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ ﴾.

وفى خط الوحدانيـة التـي تسير فيـه السـورة تقرر أن الله وحـده هو الولى، وهـو يحيـى المـوتى، بعد أن استنكر مـا عليـه المشـركين مـن اتخـاذ الأصـنام والأوثـان أوليـاء مـن دون الله ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ ﴾.

قال تعالى:

﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢ ﴾ .

ثـم يعـود إلـى الحقيقـة الأولـى وهـى الـوحى؛ فيقـرر الجهـة التـي يرجع إليها عند كل اختلاف بين النـاس؛ وهـى هذا الـوحى الـذي جـاء من عند الله، فما اختلفتم فيه فارجعوا في الحكم فيـه إلـى الله أو إلـى كتـاب الله، فحكـم الله فيـه حاضـر فـي هـذا الـوحى الـذي أوحـاه إلـى رسوله (صلي الله عليه وسلم)، وعقب تقرير هـذه الحقيقـة يحكـى قول رسول الله (صلي الله عليه وسلم) مسلِماً أمره كلـه لله متوكلاً

عليه، منيباً إليه، وقوله تعالى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ **أي: خالقهما وما بينهما، وهو مدبرالسماوات والأرض، وشئون الحياة والعباد ما هى إلا طرف من أمر السماوات والأرض، والله الذي يجب أن يرجعوا إلى حكمه فيما يختلفون فيه من شيء؛ هو خالقهم الذي سوّى نفوسهم وركبها، وقوله تعالى:** ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ **أي: جعل لكم من أنفسكم جنسى الذكر والأنثى، ومن الأنعام أيضاً؛ فيكثركم في هذا التدبير بواسطة التزاوج جيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل، ثم تفرد هو دون خلقه جميعاً فليس هنالك من شيء يماثله:** ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾، **فخالق الأشياء لا تماثله هذه الاشياء التي هى من خلقه، ومن ثم فإنها ترجع كلها إلى حكمه عندما تختلف فيما بينها على أمر،** ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ **فهو يسمع ويبصر، ثم يحكم حكم السميع البصير، له مفاتيح خزائن السماوات والأرض؛ فهو الذي يتولى أمر رزقهم قبضاً وبسطا، فلمن يتجهون إذن ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؟ وإنما يتجه الناس إلى الرازق الكافل المتصرف في الأرزاق** ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾، **الذي يدبر هذا كله بعلم وتقدير** ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ **عليم بما يُصْلِح خلقه من توسعة وتقتير.**

قال تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى وهى الوحى؛ حيث يقول الله - تعالى - لأمة محمد: " شرع الله لكم أيها المسلمون من الدين دين نوح - عليه السلام - وهو أول الرسل بعد آدم - عليه السلام - ودين محمد وهو خاتم الأنبياء ومن بينهما من الرسل، وهذا الأصل المشترك بين جميع الأديان هو عدم اتخاذ أولياء من دون الله، وتوحيد العبادة لله؛ وهو أن اجعلوا دين الله الواحد قائماً ولا تختلفوا فيه مذاهب شتى؛ حيث قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾.

ولكن المشركين في أم القرى ومن حولها - وهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم " عليه السلام " - كانوا يقفون من الدعوة القديمة الجديدة موقف المتكبرين المنكرين، كبر عليهم أن يتنزل الوحى على محمد من بينهم، وكانوا يريدون أن يتنزل كما حكى القرآن عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] أي صاحب سلطان من كبرائهم، وكان محمد لا يعدلُ في نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان، رغم إقرارهم بأنه الصادق الأمين، وأن نسبه من أوسط بيت في قريش، وكبر عليهم أن ينتهى سلطانهم الدينى بانتهاء عهد الوثنية والأصنام والأساطير التي يقوم عليها هذا السلطان.

والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله يصطفى ويختار ما يشاء، وأنه كذلك يهدى إليه من يرغب في كنفه ويتوب إلى ظله من الشاردين.

ثم يعود إلى موقف أتباع الرسل السابقين وقد جاءوا قومهم بهذا الدين الواحد فتفرق أتباعهم شيعاً وأحزاباً: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ وما تفرقت الأمم السابقة إلا من بعد ما حصلوا على وسائل العلم بأن الذي أمرهم الله - عز وجل - به وبعث به نوحاً - عليه السلام - هو الدين الحق، فلم يتفرقوا عن جهل ولكن كان ذلك بغياً بينهم وحسداً وظلماً للحقيقة ولأنفسهم سواء تفرقوا تحت تأثير الأهواء والشهوات الباغية، ولقد كانوا يستحقون أن يأخذهم الله أخذاً عاجلاً، جزاء بغيهم وظلمهم في هذا التفرق، ولكن كلمة سبقت من الله لحكمة أرادها بإمهالهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة.

وإن الذين ورثوا الكتاب من بعد أولئك الذين تفرقوا من أتباع كل نبى - وهم اليهود والنصارى - ﴿ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ أي: ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم؛ وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم.

بعد تفرق أتباع الرسل - من بعد ما جاءهم العلم - وبعد شك الذين ورثوا الكتاب من بعدهم - وهم اليهود والنصارى - أرسل الله محمداً (صلي الله عليه وسلم) ووجّه إليه الأمر بالدعوة إلى ذلك الدين الذي شرع لكم، وهو الأصل المشترك بين الأديان كافة، وهو التوحيد الخالص والاستقامة على الدعوة، وأمره ألا يتبع أهواء وأوهام الذين شككوا في دين الله الواحد، وقل يا محمد أنى صدقت بكل كتاب أنزله الله إجمالاً، وأمرنى ربى أن أقيم العدل بينكم فلا

أحابى طائفة ولا جنساً، ويعلن الربوبية الواحدة ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ **وتعلن فردية التبعة** ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ **وتعلن إنهاء الجدل بالقول الفصل** ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ **وتكل الأمر كله إلى الله صاحب الأمر الأخير:** ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾**.**

والذين يجادلون في دين الله - وهو الذي ابتعث به محمداً (صلي الله عليه وسلم) من بعد ما استجاب له الناس؛ ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى - حجتهم باطلة وعليهم غضب ولهم عذاب شديد يوم القيامة، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾**.**

قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾**.**

يقول الله - تعالى - في الآية: " ١٠ " ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ **... الآية، أي: إلى كتاب الله، وهنا يقرر الله - تعالى - أنه هو الذي أنزل هذا القرآن وأنزل الشرع الذي هو بمثابة الميزان الذي توزن به القيم و الحقوق عند الاختلاف؛ فاعملوا به قبل أن يفاجأكم يوم القيامة فلعلها تأتى قريباً،** ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾

أي: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فيقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟، فهم مستهترون بها ولا تحس قلوبهم هولها، وأما الذين آمنوا فهم مستيقنون منها، وينتظرونها بوجل وخشية، ويعلمون أنها كائنة لا محالة؛ فهم مستعدون لها عاملون من أجلها، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾ **لأن الذي خلق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى كما قال تعالى:** ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ ﴾ **[الروم: ٢٧]، ثم قال تعالى:** ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ **فهو يرزق الصالح المؤمن المشفق من الساعة، وكذا الطالح المستهتر والمكذب بالساعة؛ فمن كان يريد حرث الآخرة؛ أي يبتغي بعمله الآخرة زاد له في حرثه وأعانه عليه بنيته وبارك له فيه بعمله، وكان له مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له في هذه الأرض لا يحرم منه شيئاً، بل إن الرزق الذي يعطاه في الأرض قد يكون هو بذاته حرث الآخرة بالقياس إليه، فهو ينفق منه في أعمال الخير، فيجزيه الله بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله، ومن كان يريد حرث الدنيا أعطاه الله من عرض الدنيا رزقه المكتوب له، ويمكن المقارنة هنا بين** ﴿ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ ﴾ **و** ﴿ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا ﴾ **فمن كان يريد بعمله ثواب الآخرة نزد له في أجره وثوابه بمضاعفة حسناته، ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط؛ نعطه بعض ما يطلبه من المتاع العاجل مما قدر له** ﴿ وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ **فهو لم يعمل في حرث الآخرة شيئاً ينتظر عليه ذلك النصيب.**

قال تعالى:

﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣ ﴾.

ومن ثم يبدأ جولة أخرى حول حقيقة الوحى، ففى فقرة سابقة قرر أن ما شرعه الله للأمة المسلمة هو ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - وهو ما أوحى به محمداً (صلي الله عليه وسلم) وفى هذه الفقرة يتساءل مستنكراً عما هم فيه وما هم عليه ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ **أي: أم للمشركين شركاء في شركهم وضلالتهم - وهم شياطينهم من الجن والإنس - أو اتبعوا أهواءهم وخالفوا شرع الله، وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائناً من كان، فالله هو وحده هو الذي يشرع لعباده؛ فهو مبدع هذا الكون ومدبره،** ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ **ولولا كلمة الفصل بإمهال المخالفين لشرع الله إلى يوم القيامة، لقضى الله بينهم، فأخذ المخالفين لما شرعه الله، المتبعين لشرع من عداه، ولأخذهم بالعذاب العاجل. وإن الظالمين لهم عذاب أليم يوم القيامة، ومن ثم يعرض مشهد هؤلاء الظالمين** ﴿ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ ﴾ **فترى الظالمين في عرضات يوم القيامة وجلين خائفين من العذاب نظيرما كسبوه وعملوه بأيديهم، وهو واقع بهم لا محالة، وفى المقابل يعرض مشهد الذين آمنوا وعملوا**

الصالحات في روضات الجنات يتنعمون عند ربهم لهم ما يشاءون من المآكل والمشارب والمساكن والمناظر والمناكح والملاذ؛ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا هو الفوز العظيم والنعمة التامة الذي يبشر الله به عباده المؤمنين ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ **. ثم بعد عرض مشهد الرخاء الذي ينعم به المؤمنون يُلَقِن الله الرسول أن يقول لقومه: أنه لا يطلب منهم أجراً على الهدى الذي ينتهى بهم إلى النعيم، وينأى بهم عن ذلك العذاب الأليم. إنما هى مودته لهم لقرابتهم منه، وحسبه ذلك أجراً.** ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ **وهناك تفسير آخر مروى عن " ابن عباس - رضى الله عنهما - في صحيح " البخارى " عندما سئل عن قوله تعالى:** ﴿ إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ **فقال سعيد بن جبير: " قربى آل محمد (صلي الله عليه وسلم)، فقال ابن عباس: عجلت إن النبى (صلي الله عليه وسلم) لم يكن بطن من بطون قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. ". ويكون المعنى على هذا: إلا أن تكفوا أذاكم مراعاة للقرابة، وتسمعوا وتلينوا لما أهديكم إليه، فيكون هذا هو الأجرالذى أطلبه منكم لا سواه.** ﴿ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا ﴾ **فليس هو مجرد عدم تناول الأجر بل إنها الزيادةَ والفضل، ثم هى بعد هذا كله المغفرة والشكر** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

قال تعالى:

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثم يعود إلى الحديث عن تلك الحقيقة الأولى، ويأتى هنا على الشبهة الأخيرة التي قد يعللون بها موقفهم من ذلك الوحى ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ **فهم من ثم لا يصدقونه، لأنهم يزعمون أنه لم يوح إليه ولم يأته شيء من الله، ولكن رد الله عليهم** ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ **أي: لو افتريت عليه كذباً يطبع على قلبك ويسلبك ما آتاك من القرآن؛ كقوله تعالى:** ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ **[الحاقة الآيات: ٤٤ - ٤٧] وقوله تعالى:** ﴿ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ **أي: يحقق الحق ويثبته ويوضحه بكلماته - أي بحججه وبراهينه -** ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ **بما تكنه الضمائر وتنطوى عليه السرائر. إذن فهى شبهة لا قوام لها، وزعم لا يقوم على أساس، ومن ثم فهذا الوحى حق وقول محمد صدق.**

قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

تأتى هذه الآية بعد عرض مشهد الظالمين وهم في العذاب بما كسبوا من السيئات، ومشهد الذين آمنوا في روضات الجنات يوم القيامة، وكذلك بعد نفى كل شبهة عن صدق رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فيما بلغهم به عن ربه.

تأتى لترغيب من يريد التوبة والرجوع عما هو فيه من الضلالة قبل أن يقضى في الأمر القضاء الأخير. فالله يقبل توبة العبد إذا تاب إليه، وأنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ **أي: يعلم التوبة الصادقة ويعلم ما أسلفوا من السيئات، ويعود إلى جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين لتحفيز العباد للتوبة، فيشير إلى أن الذين آمنوا يستجيبون لدعوة ربهم ويستجيب لهم الله الدعاء** ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ **أي: يعطيهم أكثر مما طلبوا لهم ولغيرهم ممن دعوا لهم، وقيل: يعطيهم الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا، وفى المقابل؛ فجزاء الكافرين النار، وباب التوبة مفتوح للنجاة من العذاب الشديد وتلقى فضل الله لمن يستجيب، وفضل الله في الآخرة بلا حساب، وبلا حدود ولا قيود،**

أما رزقه لعباده في الأرض فهو مقيد لما يعلمه - سبحانه - من أن هؤلاء البشر لا يطيقون - في الأرض - أن يتفتح عليهم فيض الله غير المحدود ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ **فالله لعلمه بعباده جعل رزقهم في هذه الأرض مقدراً محدوداً، بقدر ما يطيقون، واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون في بلاء الأرض.** ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ **وهذه لمسة أخرى تذكرهم بجانب من فضل الله ورزقه على عباده في الأرض، وقد انقطع عنهم المطر، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول وهو الماء، وأدركهم اليأس والقنوط، ثم ينزل الله الغيث، ويسعفهم بالمطر، وينشر رحمته، فتحيا الأرض، ويخضر اليابس، وينبت البذر ويترعرع النبات، ويلطف الجو وتنطلق الحياة ويدب النشاط، وينبض الأمل، وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات، تتفتح فيها أبواب الرحمة، فتتفتح أبوب السماء بالماء.** ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ **أي: هو الذي يتولى عباده، المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المستحق للحمد، والمحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.**

قال تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

يعرض القرآن بعض الآيات الكونية المعروضة للأنظار، الدالة على قدرته العظيمة، وسلطانه القاهر ﴿ وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴾ **فآية السماوات والأرض تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها هو الله، وفي ثناياهما خلق الله من الأحياء القليل مما نعلمه، والكثير مما غاب عنا، وهو على جمعهم في أي وقت إذا شاء قدير، يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد؛ فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق. وقوله تعالى :** ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ **أي: بسبب ما كسبت أيديكم من الذنوب فيعجل عقوبتها في الدنيا، والله - تعالى - أحلم من أن يثنى عليه العقوبة في الآخرة، وما عفى الله عنه في الدنيا من الذنوب كثير، ولذلك قال تعالى:** ﴿ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ **كقوله عز من قائل:** ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾ **[فاطر، آية: ٤٥] ومن آياته الدالة أيضاً على قدرته الباهرة وسلطانه؛ تسخيره البحر لتجرى فيه السفن بأمره وهى كالجبال في البر،** ﴿ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ ﴾ **فإذا شاء جعل الريح ساكنة فيبقين ثوابت على سطحه؛ إن في ذلك لدلائل على قدرة الله عند كل صبار على ابتلاء الله وعلى طاعة الله، شكور على نعمه في تسخيره للبحر** ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴾**.**

﴿ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ **أي: لو شاء لأهلك السفن وأغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها،** ﴿ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴾ **أي: عن كثير من ذنوبهم، أو ينج ناساً كثيرين بالعفو عنهم، ومعنى آخر لقوله:** ﴿ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ **أي: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم؛ فصرفتها ذات اليمين وذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة القصد؛**

ومن ثم هلاكها، أي أن الله - تعالى - لو شاء لسكّن الريح فوقفت البواخر، ولو قواه فشردت وأبقت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسل الريح بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ **أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا فإنهم مقهورون بقدرتنا، ولو شاء الله أن يقفهم أمام بأسه، ويوبق سفنهم، وهم لا يملكون منها نجاة.**

قال تعالى:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

الآية " ٣٦ " تلفت الانتباه على أن كل ما أوتى الإنسان في هذه الأرض إنما هو متاع موقوت في هذه الحياة الدنيا، وأن القيمة الباقية هى التي يدخرها الله للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، ويستطرد السياق فيحدد صفات المؤمنين بما يميزهم عن غيرهم، ويفردهم أمة وحدهم ذات خصائص وسمات.

ومع أن هذه الآيات مكية - نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة - فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ فهو طابع أساسى للجماعة كلها، يقوم عليه أمرها كجماعة، ثم ينتقل من الجماعة إلى الدولة، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة، كذلك نجد من صفة هذه الجماعة ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾..... مع أن الأمر الذي كان صادراً للمسلمين في مكة هو أن يصبروا وألا يردوا العدوان بالعدوان، إلى أن صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة، وأذن لهم بالقتال، وذكر هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحى بأن صفة الانتصار من البغى صفة أساسية ثابتة، وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمراً استثنائياً لظروف معينة، وعلى كلٍ فالصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة هى الإيمان، والتوكل، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والمغفرة عند الغضب، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، والشورى، والإنفاق مما رزق الله، والانتصار من البغى، والعفو، والإصلاح، والصبر.

يبدأ بصفة الإيمان وهذه الصفة لازمة لكل إنسان، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة المسلمة التي تقود البشرية إلى بارىء الوجود، ومن مقتضيات هذا الإيمان التوكل على الله ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وهذا التقديم والتأخير في تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ والله يعلم ضعف هذا المخلوق البشرى، فيجعل الحد الذي يصلح به للقيادة، والذى ينال معه ما عند الله، هو اجتناب كبائر الإثم والفواحش؛ لا صغائر الإثم والذنب، وتسعه رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر، لأنه أعلم بطاقته، وهذا فضل من الله، وسماحة ورحمة بهذا

الإنسان،

توجب الحياء من الله، كقوله تعالى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلاً كَرِيمًا ﴾ **[سورة النساء، الآية: ٣١]، وقوله تعالى:** ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ **وتأتى هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان في ذنوبه وأخطائه، فتحبب في السماحة والمغفرة بين العباد،** ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ **أي: الذين أجابوا ربهم لما دعاهم رسول الله للإيمان، ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة.** ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ **وهى الركن الثانى في الإسلام بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهى الصلة بين العبد وربه، وهى مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد ركعاً سجداً، لا يرتفع رأس على رأس، ولا تتقدم رجل على رجل، ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى - قبل أن يذكر الزكاة،** ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾**، ثم ذكر صفة:** ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ **وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التي حُدِدت في السنة الثانية من الهجرة. ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيهاً مبكراً في حياة الجماعة المسلمة.**

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ **أي: الذين إذا نالهم ظلم يدفعونه عنهم بإقدامهم وشجاعتهم،** ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا ﴾ **فالأصل في الجزاء، مقابلة السيئة بالسيئة، فمن عفا وأصلح ما بينه وبين عدوه فأجره على الله، فشرع العدل - وهو القصاص - وندب إلى الفضل - وهو العفو -، فقال تعالى :** ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **الظالمين أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة، أو من زاد من العقوبة عن السيئة. وقال تعالى في صفات المؤمن أيضا:** ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم

مِّن سَبِيلٍ ﴾

أي: ليس عليه جناح في الانتصار ممن ظلمه ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ **أي: العتاب والعقاب على الذين يبوؤن بالاعتداء؛ فيظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، والله يتوعد الظالم الباغى بالعذاب الأليم، وقوله تعالى** ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ **أي: صبر على الأذى وشر السيئة - مع المقدرة على دفع السيئة - إن ذلك لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي يثاب عليها الثواب الجزيل، فالعفو أقرب للتقوى.**

قال تعالى:

﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

وبعد تقرير صفات المؤمنين الذين يدخر الله لهم عنده ما هو خير وأبقى، يعرض في المقابل صورة الظالمين الضالين، وما ينتظرهم من ذل وهوان وخسران.

إن قضاء الله لا يرد، ومشيئته لا معقب عليها ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾**... فإذا علم الله من حقيقة العبد أنه مستحق للضلال، فحقت عليه كلمة الله أن يكون من أهل الضلال، ولم يكن له بعد ذلك من ولى يهديه من ضلاله، أو ينصره من جزاء الضلال الذي قدره الله.**

ثم صور الله - سبحانه وتعالى - مشهد الظالمين لما رأوا العذاب يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ **وتراهم يعرضون على النار، وهم خاشعين لا من التقوى ولا من الحياء، ولكن من الذل والهوان، وهم ينظرون إلى النار اختلاساً ذعراً منها، ويقول الذين آمنوا حينذاك: إن الظالمين هم الذين ضيعوا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وما كان لهم إذ ذاك من نصراء ينصرونهم من دون الله ومن يضلله الله فما له إلى النجاة من طريق.**

قال تعالى:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

وفى ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المكابرين، ليستجيبوا لربهم قبل أن يفجأهم مثل هذا المصير فلا يجدوا لهم ملجأ يقيهم، ولا نصيراً ينصرهم من دون الله. ويوجه الرسول (صلي الله عليه وسلم) إلى التخلى عنهم إذا هم أعرضوا فلم يستجيبوا لهذا النذير، فما عليه إلا البلاغ، وما هو مكلف بهم ولا كفيل ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ ﴾،

ثم يكشف عن طبيعة هذا الإنسان الذي يعارض ويعاند، ويعرض نفسه للأذى والعذاب، وهو لا يحتمل في نفسه الأذى ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾ **أي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، وإن أصابه جدب ونقمة وبلاء وشدة يجحد ما تقدم من النعم، بعكس المؤمن؛ فهو إن أصابه سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ حيث قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) :(عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له). (رواه مسلم). ويعقب على هذا بأن نصيب هذا الإنسان من السراء والضراء، ومن العطاء والحرمان كله بيد الله؛ فهو المالك لأمره في جميع الأحوال.**
﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾ **فالملك كله لله، يخلق ما تقتضيه حكمته، يعطى من يشاء ذرية إناثاً، ويعطى من يشاء ذكوراً، أو يهب من يشاء أزواجاً من هؤلاء وهؤلاء، ويجعل من يشاء بلا ذرية، إنه عليم قدير، يفعل ما يفعل عن علم وحكمة وتدبير.**

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

وفى ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى التي تدور عليها السورة، وهى حقيقة الوحى والرسالة. ذكر مقامات الوحى الإلهى وهى ثلاثة: ﴿ وَحۡيًا ﴾ **أنه تبارك وتعالى يقذف في روع النبى (صلي الله عليه وسلم) شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله - عز وجل:** ﴿ أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ **كما كلم موسى - عليه السلام - فإنه سأل الرؤية بعد التكلم فحجب عنها** ﴿ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ **أي: ينزل جبريل - عليه السلام - وغيره من الملائكة على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام.** ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ **يوحى من علو ويوحى بحكمة إلى من يختار.** ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ **بمثل هذه الطريقة وبمثل هذا الاتصال،** ﴿ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ **فالوحى تم بالطريقة المعهودة، ولم يكن أمرك بدعاً،** ﴿ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾**... فيه حياة، يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها في القلوب وفى الواقع العملى المشهود** ﴿ مَا كُنتَ تَدۡرِى مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾ **وكان الرسول يسمع عن الكتاب والإيمان، وكان معروفاً في الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم، وأن لهم عقيدة، ولكن الآية أن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) لم يكن يعرف على التفصيل الكتاب والإيمان الذي شرع له في القرآن** ﴿ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ ﴾ **أي: القرآن** ﴿ نُورًا نَّهۡدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾**،** ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ **يا محمد** ﴿ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ **وهو الحق القويم، وتفخيماً لشأن هذا الصراط المستقيم وتأكيداً لوجوب سلوكه نسبه - سبحانه - وأضافه إلى نفسه فقال:** ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ **ثم فسّر الصراط المستقيم أي شرعه الذي أمر به فهو:** ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾

أي: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ **ثم إليه وحده - دون سواه - ترجع أمور العالم؛ فيحكم فيها، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.**

* * *

سورة الزخرف

مختارات من التفاسير
في الحواميم

سورة الزخرف

هذه السورة مكية ما عدا آية ٥٤ فمدنية، وآياتها تسع وثمانون آية، ونزلت بعد الشورى، سميت بهذا الاسم (الزخرف) لما فيها من التمثيل الرائع لمتاع الدنيا الفانى وبريقها الخادع بالزخرف اللامع الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين. وعن صلتها بسورة الشورى هي اهتمام كل منهما بفضل وصدق القرآن الذي أنزله الله على النبي الأمي؛ بأفصح لسان، وأنصع بيان، واهتمام كل منهما بالعقيدة الإسلامية وأصول الإيمان " الإيمان بالوحدانية وبالرسالة وبالبعث والجزاء.

قال تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

يقسم الله تعالى " بحاميم "، كما يقسم بالكتاب المبين، وحاميم من جنس الكتاب المبين، أو الكتاب المبين من جنس حاميم، فهذا الكتاب المبين في صورته اللفظية من جنس هذين الحرفين. وهذان الحرفان كبقية الأحرف في لسان البشر آية من آيات الخالق، الذي صنع البشر هذا الصنع، وجعل لهم هذه الأصوات، فالغاية من جعل هذا القرآن من جنس هذه الأحرف، وبلغة ولسان العرب كى يعقلوه.

﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ ثم يبين منزلة هذا

القرآن وفضله وشرفه عنده أنه في اللوح المحفوظ (أصل الكتب السماوية) وهو كناية عن علم الله القديم ﴿ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أي: بينٌ شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه أهل الأرض، وحكيم أي: محكم، أو: ذو حكمة بالغة يفيض هدى ونور.

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾

أي: أتحسبونَ أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمركم الله به ؟، ولقد كان عجيباً أن يعنى الله سبحانه - في عظمته وفى علوه وفى غناه - بالعرب فينزل لهم كتاباً بلسانهم، يحدثهم بما في نفوسهم، ويكشف لهم عن دخائل حياتهم، ويبين لهم طريق الهدى، ويقص عليهم قصص الأولين، ويذكرهم بسنة الله في الغابرين... ثم بعد ذلك يهملون ويعرضون، لذلك يهددهم الله بالإهمال من حسابه ورعايته، وقال " قتادة " في معنى هذه الآية: " والله لو أن الله رفع هذا القرآن حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا؛ ولكن الله - تعالى - عاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ماشاء الله من ذلك، فهو - سبحانه وتعالى - لم يترك دعاؤهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدى من قدر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته "، ثم يذكرهم بسنته في المكذبين بعد إرسال النبيين ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: وكم أرسلنا من نبى في الأقدمين، فكذبوهم واستهزؤوا بهم، فأهلكنا أشد منهم تجبراً، وسلف أمام أعينكم مثلهم، ومضت عقوبة الأولين وسنتنا فيهم أي: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين.

قال تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

والعجيب في أمر هؤلاء المشركين أنهم كانوا يعترفون بوجود الله وخلقه للسماوات والأرض، وهم مع ذلك يعبدون معه غيره من الأصنام والأوثان ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ **وواضح أن هاتان الصفتان** ﴿ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ **ليستا من قولهم؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التي جاء بها الإسلام. هذه الصفات الإيجابية التي تجعل لذات الله في نفوسهم أثراً فعالاً في حياتهم وحياة هذا الكون، فكانوا يعرفون الله خالقاً لهذا الكون، وخالقاً لهم كذلك، ولكنهم كانوا يتخذون من دونه شركاء، لأنهم لم يعرفوه بصفاته التي تنفى فكرة الشرك، والقرآن هنا يعلمهم أن الله الخالق للسماوات والأرض هو العزيز العليم، فهو القوى القادر وهو العليم العارف؛ فالقرآن بدأ باعترافهم، ثم مضى بهم خطوة أخرى في تعريف الله - سبحانه وتعالى - بصفاته، ثم بين فضله عليهم بعد الخلق والإنشاء في بقية هذه الآيات. جعل الله لهم الأرض فراشاً وقراراً ثابتة يسيرون عليها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بهم، وجعل لهم فيها طرقاً بين الجبال والأودية، ونزل من السماء ماء بمقدار، بحسب الحاجة والكفاية، بقدر حاجة الزرع والسقيا للإنسان والبهائم،** ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ **أي:**

فأحيينا به أرضاً ميتة مقفرة من النبات. ﴿ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴾ **أي: كذلك نخرجكم من قبوركم كما نخرج النبات من الأرض الميتة. وخلق الأزواج كلها من الحيوان والنبات على اختلاف أجناسها، وسخر للإنسان السفن في البحر، والإبل في البر ما يركبه في أسفاره، وعليه؛ فليشكروا الله على تسخيرهما.** ﴿ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴾ **أي: وما نحن بمتمكنين منها لولا تسخيرها لنا، أو ما نحن بقادرين على مقابلة نعمته بنعمة مثلها، وما نملك إلا الشكر نقابل به هذا الإنعام. ثم ليتذكروا أنهم عائدون بعد الخلافة في الأرض إلى ربهم؛ ليجزيهم عما فعلوا في هذه الخلافة التي زودهم فيها بأنعمه** ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾.

قال تعالى:

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم يقول الله - تعالى - مخبراً عن المشركين فيما افتروه - في جعلهم لله من عباده جزءا - بأن ادعوا أن له ولداً تارة، وأن الملائكة بنات الله تارة أخرى، وجعلوا بعض الأنعام لطواغيتهم، وبعضها لله، كقوله تعالى في [سورة الأنعام، آية ١٣٦] ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾. إن الإنسان لشديد الكفر، فهل اتخذ الله مما يخلق بنات واختار لكم البنين ؟ وهم مع ذلك إذا بشر أحدهم بأنثى ولدت له صار وجهه مسوداً من الغم، وهو ممسك عليه لا يبيحه ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾. وجعلوا لله الإناث - الأرذأ في زعمهم - وهي التي تربى في الحلى لتكمل نقصها، وهي في الجدال عاجزة عيية، أومن يكون هكذا ينسب إلى الله - عز وجل - وتأنفون أنتم من ذلك ! وأنكر الله - تعالى - قول المشركين عن الملائكة أنهم بنات الله فقال: أشهدوا خلقهم؟ ثم هددهم بالعذاب يوم القيامة، وسيسألون عن ذلك ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾.

ثم يتابع الفرية وما يصوغونه حولها من جدل: إنهم يحاولون التهرب حين تحاصرهم الحجج فيحيلون على مشيئة الله، يزعمون أن الله راضٍ عن عبادتهم للملائكة، ولو لم يكن راضياً ما مكنهم من عبادتهم، ولمنعهم من ذلك منعاً. وهذا القول احتيال على الحقيقة، فإن كل شيء يقع في هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله - هذا حق - ولكن من مشيئة الله أن جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال. وكلفه اختيار الهدى ورضيه له، ولم

يرض له الكفر والضلال. ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ **أي: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة الأصنام؛ التي هى على صورة الملائكة - التي هى بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه، وهذا اعتقاد فاسد منهم، وما لهم بما يقولونه من علم، إن هم إلا يكذبون ويتبعون الأوهام والظنون.** ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ **أي: أم أنزلنا إليهم كتاباً قبل القرآن يؤيد لهم مذهبهم فهم به متمسكون ! لا بل كل ما لديهم من الأدلة على صحة طريقتهم أنهم يقولون إنا وجدنا آباءنا على طريقة، وإنا على آثارهم سالكون، فهم مقلدون في كفرهم كجميع الضالين. وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال متنعموها مثل هذا القول. وفى نهاية هذه الجولة يعرض عليهم مصائر الذين قالوا قولتهم تلك، واتبعوا طريقتهم في المحاكاة والتقليد، وفى الإعراض والتكذيب** ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ **قال كل رسول لقومه - حين أنذرهم بعذاب الله - أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بشىء هو أهدى لكم مما وجدتموهم عليه. فلمّا لم يجدوا حجة قالوا: " إنا بما أرسلتم به كافرون. فانتقمنا منهم باستئصالهم، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين. والآية تسلية لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) ودلالة على أن التقليد في نحو هذا ضلال قديم.**

قال تعالى:

﴿وَإِذْ

قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى
فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ
مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ
ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ
عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا
بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ
بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ
ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ
وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾
وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

لما حكى الله عن المشركين تقليدهم الأعمى للآباء، ذكر هنا إمام الحنفاء إبراهيم - عليه السلام -، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه. ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ **أي: واذكر لهم يا محمد تبرؤ إبراهيم من قومه، ومن عبادة الأوثان التي كانوا يعبدونها مع الله. ولهذا قال:** ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ **واستثنى الله، ووصفه بصفته التي تستحق العبادة ابتداء، وهو أنه فطره وأنشأه، وهو الذي يرشده إلى الدين الحق،** ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ **أي: جعل كلمة التوحيد : (لا إله إلا الله) باقية في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله،** ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ **أي: يرجعون إلى الذي فطرهم فيعرفوه ويعبدوه.** ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ **أي: بل متعت أهل مكة وآباءهم - وهم من عقب إبراهيم - بالإمداد في العمر والنعمة فاغتروا بإمهال ربهم لهم، ونسوا ملة إبراهيم - عليه السلام -**

وهى التوحيد، حتى جاءهم القرآن، وجاءهم رسول مبين؛ يعرض عليهم هذا الحق في وضوح وتبيين. وكانت دعواهم أن هذا القرآن سحر، وكفروا به، ثم يحكى القرآن تخليطهم في القيم والموازين، وهم يعترضون على اختيار محمد (صلي الله عليه وسلم) للرسالة ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ **استبعدت قريش نزول القرآن على محمد، وهو فقير يتيم، فهلا نزل على رجل ذى وجاهة من مكة أو الطائف، وهم يعتبرون مقياس العظمة: الجاه والمال، وهذا رأى الجاهلين في كل زمان ومكان، أما مقياس العظمة الحقيقية عند الله تعالى وعند العقلاء؛ فإنما هى عظمة النفس وسمو الروح، ومن أعظم نفساً وأسمى روحاً من محمد (صلي الله عليه وسلم) ؟ والله أعلم حيث يجعل رسالته؛ ولهذ رد الله - تبارك وتعالى - عليهم بقوله:** ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ **أي: أهم يمنحون النبوة ويخصون بها من شاءوا من العباد؟، حتى يقترحوا أن تكون لفلان الغنى، أو فلان الكبير من الناس.** ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ **أي: نحن قسمنا بينهم معيشتهم في حياتهم الدنيا؛ فجعلنا منهم أغنياء وفقراء، وجعلنا بينهم تفاوتاً في الدرجات ليستعمل بعضهم بعضاً في حوائجهم لعمران هذه الأرض، وليس علينا في ذلك اعتراض، فكيف بأمر الرسالة؛ فإنه لا ينزلها إلاعلى أطهر الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأظهرهم أصلاً. ثم قال - تعالى - لنبيه:** ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ **أي: نبوته التي منحكها خير مما يجمعون من الأموال، فالمال عرض الحياة الدنيا الزائل، ووراء ذلك رحمة الله، والله يختار لها من يشاء، ممن يعلم أنهم لها أهل، ولا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا، فهذه القيم عند الله زهيدة، ومن ثم يشترك فيها الأبرار والفجار. وأن قيم هذه الأرض لمن الزهادة**

والرخص بحيث - لو شاء الله - لأغدقها إغداقاً على الكافرين به.

ذلك إلا أن تكون فتنة للناس، تصدهم عن الإيمان بالله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ **فهكذا؛ لولا أن يفتتن كثير من الناس، ويعتقدون أن إعطاءنا للمال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال؛ لجعلنا لمن يكفر بالله لبيوتهم سقفاً من فضة، ومصاعد من ذهب عليها يصعدون إلى أعلى، بيوتاً ذات أبواب كثيرة، قصوراً فيها سرراً للاتكاء، وفيها زخرف للزينة... رمزاً لهوان هذه الفضة والذهب والزخرف والمتاع، بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمن، والآخرة مكتوبة للمتقين، فهو يدخر لهم ما هو أكرم وأبقى، ويؤثرهم بما هو أقوم وأغلى، ويميزهم على من يكفر بالرحمن، ممن يبذل لهم من ذلك المتاع الرخيص ما يبذله للحيوان. أي إنما ذلك من الدنيا الفانية الحقيرة عند الله - تعالى -؛ فهو يعجل للكافر بحسناته التي يعملها في الدنيا مآكل ومشارب؛ ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله - تعالى - حسنة يجزيهم بها في الدار الآخرة.**

قال تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾

فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

لما بيّن زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله، وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل عل كرامة لهم عند الله، وأن الآخرة للمتقين، استطرد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض، وهم مشغولون بالدنيا عن ذكر الله، منصرفون عن الطاعات التي تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين. ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾ **أي: من يتعامى ويغفل عن ذكر الرحمن اقتضت مشيئة الله أن يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه، ويصبح قرين سوء يوسوس له، ويغريه على إتيان المنكرات، ويمنعه عن طريق الخير، ثم لا يدعه يفيق، أو يتبين الضلال فيتوب، إنما يوهمه أنه سائر في الطريق القويم. وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب، كما قضاه الله في علمه. ويوم القيامة يتبرأ الكافر من الشيطان الذي أضله، والموكل به في الدنيا** ﴿ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ ﴾، **ولم يكن بيننا لقاء، ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله:** ﴿ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾ **أي: فالعذاب كامل، لا يتقاسمه الشركاء فيهون. ثم يتجه الخطاب إلى رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يسليه عن هذا المصير البائس الذي انتهى إليه فريق من أمته، ويعزيه عن إعراضهم عنه وكفرهم بما جاء به، ويثبته على الحق الذي أوحى إليه وهو الصراط المستقيم.** ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ **أي: ليس عليك يا محمد هداهم؛ ولكن الله يهدى من**

يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك؛ وإنما عليك البلاغ، وليس عليك هدى من كان مغموساً في الضلال المبين.

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ **أي: لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم - ولو ذهبت أنت -، أو نرينك عقابهم، فنحن قادرون على هذا وعلى هذا.** ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ **أي: فاثبت على ما أنت فيه، وخذ بالقرآن المنزل على قلبك، وسر في طريقك لا تهتم بما كان منهم وما يكون فإنك على صراط مستقيم.** ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ **أي: إن هذا القرآن شرف عظيم لك ولقومك من قريش، إذ أنزل بلغتهم وعلى رجل منهم، وسوف تسألون عن هذه النعمة وعن العمل به يوم القيامة. أو أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة.** ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ **أي: إن جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت إليه - من عبادة الله وحده لا شريك له - ونهوا عن عبادة الأصنام. فعلام يرتكن هؤلاء الذين يجعلون من دون الرحمن آلهة يعبدون؟.**

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ

فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ثم يسرد القرآن أحوال أمم الرسل السابقين ليسرى عن نبيه محمداً (صلي الله عليه وسلم) في تكذيب قومه له، وبدأ بقصة قوم موسى؛ ليشير إلى أن منطق العناد والطغيان واحد. فكما أنكر كفار قريش نزول الرسالة على محمد (صلي الله عليه وسلم) بسبب أنه فقير عديم المال والجاه ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾. **فقد سبقهم فرعون إلى التجبر بماله وسلطانه، ورفض قبولً دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالاً وجاهاً من موسى، فقوله تعالى:** ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ **يعنى: أنه ابتعثه إلى فرعون وملأه من الأمراء والوزراء والرعايا - من القبط - وبنى إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخرية واستهزاء.** ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ ﴾ **وما نريهم آية من آيات العذاب كالطوفان والجراد والقمل والضفادع إلا وهى في غاية الكبر والظهور. بحيث تكون أوضح من سابقتها.** ﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ **ومع هذا العذاب ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، فكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى - عليه السلام - ويتلطفون له في العبارة بقولهم: (يا أيها الساحر) أي: يأأيها العالم، وكان علماء زمانهم هم السحرة، ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منه؛ وإنما هو تعظيم - في زعمهم - ففى كل مرة يعدون موسى - عليه السلام - إن كشف عنهم هذا العذاب أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بنى**

إسرائيل، وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ **وهذا كقوله تعالى** ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف، آية: ١٣٣ - ١٣٥] **وجمع فرعون قومه - معانداً - ومنادياً فيهم متبجحاً ومفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها، حيث قال تعالى:** ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ **أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، وموسى وأتباعه فقراء وضعفاء.** ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ **أي: بل أنا خير من هذا الضعيف الحقير الذي لا عز له ولا جاه ولا سلطان، ولا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضح مقصوده، فكيف يصلح للرسالة ؟ يعنى بذلك موسى - عليه السلام:** ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ **فهلا ألقى الله إليه أسورة من ذهب - كرامة له، ودلالة على نبوته؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ! قال مجاهد: " كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلا رئيساً عليهم سوّروه وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته (تفسير القرطبى: ١٦/ ١٠٠). " أو جاء معه الملائكة مقترنين " أو جاءت معه الملائكة يكتنفونه خدمة له، وشهادة بصدقه.** ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ **أي: فاستخف بعقول قومه، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة.** ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ **أي: فلما أغضبونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب.** ﴿ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ **فأغرقنا فرعون**

وقومه أجمعين في البحر. ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ أي: جعلنا قوم فرعون قدوة لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلاً يعتبرون به؛ لئلا يصيبهم مثل ذلك، قال مجاهد: " سلفاً لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار، وعظة وعبرة لمن يأتى بعدهم (تفسير القرطبى: ١٠٢/١٦).

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم جاء القرآن بقصة عيسى ابن مريم - عليه السلام -، فلما شبه الله عيسى في إنشاءه إياه من غير فحل، ومثله بآدم - الذي خلقه من تراب - إذا قومك منه يصدون ويضجون ويقولون: ما يريد محمد منا إلا أن نتخذه إلهاً نعبده كما عبدت النصارى المسيح، فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ يقصدون محمداً - أفنعبد محمداً ونترك آلهتنا ؟ وقال عز من قائل: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾ أي: ما مثلوا لك هذا المثل إلا جدالا وخصومة. ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي: يلتمسون الخصومة بالباطل، وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ بالنبوة وشرفناه بالرسالة - يعنى عيسى عليه السلام - وليس هو إلهاً، أو ابن إله كما زعم النصارى ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: جعلناه آية وعبرة لبنى إسرائيل، يستدلون بها على قدرة الله - تعالى -، حيث خلق من أم بلا أب.

تفسير آخر للآية قال المفسرون: " لما قرأ رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال ابن الزبعرى: " أهذا لنا ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال عليه الصلاة والسلام:(هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم)، فقال: قد خصمتك ورب الكعبة؛ أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود يعبدون عزيراً ؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة ! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت رسول الله (صلي الله عليه وسلم) انتظاراً للوحى، فظنوا أنه لزمته الحجة؛ فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم (حاشية الصاوى: ٥٢/٤، وانظر تفسير أبى السعود: ٤٧/٥)، فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء ١٠١]. قال القرطبى: " ولو تأمل " ابن الزبعرى " الآية ما اعترض عليها، لأنه قال: " إنكم وما تعبدون " ولم يقل " إنكم ومن تعبدون " وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين. ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي: آلهتنا خير أم عيسى؟ فإن كان عيسى في النار فلتكن آلهتنا معه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ أي: لو أردنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكة يسكنون في الأرض يكونون خلفاً عنكم. ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أي: إن عيسى - عليه السلام - علامة على قرب الساعة. ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أي: فلا تشكوا في أمر الساعة فإنها آتية لا محالة. وقل لهم يا محمد: ﴿ وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ واحذروا أن يصدكم الشيطان عن اتباع الحق، فإنه لكم عدو مبين، أي: ظاهر العداوة ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم
بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ
فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ
لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ
إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ
تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ
ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ
أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣
إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ
٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ
عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ
لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٨ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ٧٩ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ
سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠
أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ٨١ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ٨٢ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٨٣
وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٤
وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ
وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا
مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ **أي: النبـوة** ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ **يعنـى مـن الأمـور الدينية لا الدنيوية.**

﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ **بامتثال أوامره واجتناب نواهيه** ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ **فيما جئتكم به.** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ **أي: أنا وأنتم عبيد له فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لاشريك له، وهذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم، وقوله تعالى:** ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ **أي: اختلفت الفرق، وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله - وهو الحق -، ومنهم من يدعى أنه ولد الله، ومنهم من يقول أنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. ولهذا قال تعالى :** ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ **فهل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم غافلون عنها، مشتغلون بأمور الدنيا.** ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ **ثم ذكر - تعالى - أحوال القيامة فقال:** ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ **أي: الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداء؛ إلا من كانت صداقته ومحبته لله، قال ابن كثير: " كل خلة وصداقة لغير الله؛ فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة؛ إلا ما كان لله - عز وجل - فإنه دائم بدوامه. " (مختصر تفسير ابن كثير: ٢٩٥/٣). كما قال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - :** ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت آية: ٢٥]. **قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: " إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع؛ فينادى مناد:** ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ **فيرجوها الناس كلهم، قال فيتبعها** ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ **قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين،**

ويقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم - أو نظراؤكم المؤمنين - تنعمون فيها وتسرون ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ ﴾ **أي: آنية الطعام** ﴿ وَأَكۡوَابٖ ﴾ **آنية الشراب** ﴿ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ ﴾ **أي: طيب الطعم والريح وحسن المنظر** ﴿ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ **أي: لا تخرجون منها، ولا تبغون عنها حولاً، ثم قيل لهم - على وجه التفضل والامتنان - :** ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ **أي: أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم؛ فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات. قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) :(ما منكم من أحد إلا وله منزلان، منزل في الجنة، ومنزل في النار؛ فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله؛ فذلك قوله :** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ [المؤمنون، آية: ١٠])، **(رواه ابن ماجة في السنن).** ﴿ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ **أي: مهما اخترتم من جميع الأنواع، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر هنا الفاكهة لتتم النعمة والغبطة، والله أعلم.**

ولما ذكر حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ ﴾ **والمراد بالمجرمين: الكفار؛ لأنهم ذكروا في مقابلة المؤمنين، وهم في العذاب الشديد في جهنم دائمون، لا يخفف عنهم العذاب لحظة.** ﴿ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ **أي: وهم في العذاب يائسون من كل خير.** ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **بعد قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم؛ فكذبوا وعصوا.** ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ ﴾ **خازن النار** ﴿ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ ﴾ **أي: يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه،**

فـإنهم كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ [فـاطر: ٣٦]، **وقـال عـز وجـل:** ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾ [الأعلـى، آيـة: ١١ - ١٣]. **فلمـا سـألوا أن يموتـوا أجـابهم مالـك** ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ **أي: لا خروج لكم منهـا، ولا محيد لكم عنهـا، ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال:** ﴿ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ **وهـذا خطـاب تـوبيخ وتقريـع، أي: لقـد جئنـاكم أيهـا الكفار بالحق الساطع المبين، ولكنكم كنتم كـارهين لـدين الله لكونـه مخالفاً لأهوائكم وشهواتكم،** ﴿ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴾ **الكلام عن كفـار قـريش أي: أم أحكـم هـؤلاء المشـركون أمـراً فـي كيـد محمـد (صلي الله عليه وسلم)، فإنا محكمون أمرنـا فـي نصرته وحمايتـه، وإهلاكهـم وتـدميرهم؟ قـال مقاتـل: نزلـت فـي تـدبيرهم المكـر بـالنبى (صـــلي الله عليـــه وســـلم) فـــي دار النـــدوة (تفســـير القرطبـــى: ١١٨/١٦) كمــا قــال تعــالى:** ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمـل: ٥٠]؛ **ولـهـذا قـال تعـالى:** ﴿ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴾ **أي: بلـى إنـا نسمع سـرهم ونجـواهم، وملائكتنـا الحفظـة يكتبـون عليهم أعمـالهم. والسر هـو مـا يحدث بـه الإنسـان نفسـه أو غيره فـي خفيـة، والنجوى مـا تكلموا بـه بينـهم.**

وقولـه تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴾ **يعنـى: أنـا أول الآنفين، أو قل يـا محمد لهؤلاء المشركين: " لـو فـرض أن لله ولداً لكنت أنـا أول من يعبد ذلك الولد، ولكنـه - جل وعـلا - مُنَزّه عـن الزوجـة والولـد؛ ولـهـذا قــال تعــالى:** ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي: تنزه وتقدس الله - العظيم الجليل،

رب السماوات والأرض، ورب العرش العظيم - عما يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه. ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ ﴾ في جهلهم وضلالهم، ويلعبوا في دنياهم ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ أي: هو إله من في السماوات ومن في الأرض؛ يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه. ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي: هو الحكيم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم، وهذا كالدليل على وحدانيته تعالى. ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي: خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك أي: استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلى العظيم المالك للأشياء. ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي: وعنده وحده علم زمان قيام الساعة، وإليه - لا إلى غيره - مرجع الخلائق للجزاء، فيجازى كلا بعمله. ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ أي: إن كل ما يعبدونه الكفار من دون الله لا يقدرون على الشفاعة لهم، واستثنى ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه. ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: يعلمون أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه، قال المفسرون: " والمراد ب ﴿ مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ عيسى وعزير والملائكة، فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله، فهؤلاء تنفع شفاعتهم للمؤمنين، وإن كانوا عُبدوا من دون الله. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي: لئن سألت المشركين بالله - العابدين معه غيره - من خلقهم ؟ ليقولن الله، فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى

عبـــادة الأوثـــان ؟ ﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ وقـــال محمد (صلي الله عليه وسلم) شاكياً من قومه الذين كذَّبوه فقال: إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ ﴾ قيل إن معناه في التأويل: العطف على قوله تعـــالى ﴿ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم ﴾ أي: ونســمع ﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ أي: قول محمد (صلي الله عليه وسلم) وشكواه إلى ربه - تعالى - إن هؤلاء الذي أمرتنى بإنذارهم، وأرسلتنى إليهم؛ قوم لا يؤمنون. ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ ﴾ أي: أعرض عنهم وقل سلام، ونسخت هذه الآية بقتالهم: ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ أي: فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وهو وعيد وتهديد للمشركين، وتسلية لرسول الله (صلي الله عليه وسلم).

* * *

سورة الدخان

مختارات من التفاسير
في الحواميم

سورة الدخان

هذه السورة مكية وآياتها تسع وخمسون، نزلت بعد الزخرف، وهى تتناول أهداف السور المكية " التوحيد، الرسالة، البعث " لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان، وتتمحور هذه السورة حول إنذار المشركين بالعذاب الأليم، وتبشير المتقين بالمقام الأمين في الجنة.

سميت سورة الدخان بهذا الاسم؛ لأن الله - تعالى - جعله آية لتخويف الكفار، حيث أُصِيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول (صلي الله عليه وسلم)، وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبى (صلي الله عليه وسلم).

تبدأ السورة بقسم من الله - تعالى - بحق القرآن الواضح الآيات، البين المعانى، وقد أنزله الله - تعالى - في ليلة مباركة - وهى ليلة القدر -، وتنتهى السورة كما بدأت بالتذكير بأن الله يسر القرآن بلسان العرب، لعلهم يتعظون وينزجرون.

قال تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا
مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ
۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ
وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾.

يقول الله - تعالى - مخبراً عن القرآن العظيم: أنه أنزله في ليلة مباركة - وهى ليلة القدر - رغبة في إخبار الناس - رحمة بهم -

بما يجب عليهم مع تخويفهم من عاقبة غفلتهم. قال ابن جزى: " وكيفية إنزاله فيها أنه أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل به جبريل - عليه السلام - على النبى (صلي الله عليه وسلم) شيئاً بعد شيء (التسهيل لعلوم التنزيل: ٣٤/٤)، وقيل: المعنى ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. وقوله: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ **أي: في ليلة القدر يُفْصَل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها.** ﴿ حَكِيمٍ ﴾ **أي: محكم لا يبدل ولا يغير؛ ولهذا قال جل جلاله:** ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ **أي: جميع ما نقدره في تلك الليلة وما نوحى به إلى الملائكة من شؤون العباد، هو أمر حاصل من جهتنا، بعلمنا وتدبيرنا.** ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ **أي: مرسلين إلى الناس رسولاً يتلوا عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال:** ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ **أي: رحمة بالعباد؛ فإنه سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم وأحوالهم.** ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ **أي: إن الذي أنزل هذا القرآن العظيم هو رب السماوات والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيهما، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين. فلا رب سواه ولا معبود غيره؛ لأنه متصف بصفات الجلال والكمال، يحيى ويميت، خالقكم وخالق آباؤكم الأولون؛ ولهذا قال تعالى:** ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

قال تعالى:

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ومع هذا البيان في القرآن العظيم فإن مشركى قريش ليسوا موقنين فيما يظهرونه من الإيمان في قولهم: " الله خالقنا " ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ .. ﴾ [الزخرف، الآية: ٨٧]، بل هم في شك من أمر البعث، فهم يلعبون ويسخرون؛ ولهذا قال - عز وجل: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ ثم يتجه الخطاب تسلية لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: فانتظر يا محمد عذابهم، يوم تأتى السماء بدخان كثيف، بين واضح يراه كل أحد، قال ابن مسعود: " إن قريشاً لما عصت الرسول (صلي الله عليه وسلم) دعا عليهم فقال:(اللهم اشدد وطأتك على مُضَرْ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف، وكان الرجل يحدث أخاه فيسمع صوته ولايراه؛ لشدة الدخان المنتشر بين السماء والأرض، ثم قال ابن مسعود: " خمس قد مضين " الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام " (البحر المحيط: ٣٤/٨) وقال ابن عباس: " لم يمض الدخان بل هو من أمارات الساعة، وهو يأتى قبيل القيامة، يصيب المؤمن منه مثل الزكام، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين، حتى يصبح رأس الواحد كالرأس المشوى، ويغدو كالسكران فيملأ الدخان جوفه ويخرج من منخريه وأذنيه ودبره (قول ابن مسعود هو الأظهر، وقد اختاره أبو السعود وقال: " هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم، وذكر ابن كثير الرأيين، ثم رجَح رأى ابن عباس (ا بن كثير: ٣٠٠/٣). ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: يشمل كفار قريش ويعمهم من كل جانب، ويقولون حين يصيبهم الدخان: هذا عذاب أليم. ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي ويقولون مستغيثين: " ربنا ارفع عنا العذاب فإننا مؤمنون بمحمد وبالقرآن إن كشفته عنا. " قال البيضاوى: " وهذا وعد بالإيمان إن كشف العذاب عنهم. " (تفسير البيضاوى: ٣١٢/٣). ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ استبعاداً

لإيمانهم - أي: من أين يتذكرون ويتعظون عند كشف العذاب ؟ ﴿ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ **أي: والحال أنه قد أتاهم رسول مؤيد بالآيات الباهرات، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه ؟** ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ **أي: ثم أعرضوا عنه وبهتوه، ووصفه بعضهم بالجنون، وقال بعضهم: " إن الجن يلقى عليه هذا الكلام حال تخبطه، ومنهم من كان يقول أنه يتعلم هذا الكلام من بعض الناس.** ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ **أي: لو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا؛ لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب. كقوله تعالى:** ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٥] **وكقوله تعالى:** ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨] **ومعنى آخر: أنا سنكشف عنكم العذاب زمناً قليلاً، ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان. قال ابن مسعود: " لما كشف الله عنهم العذاب - باستسقاء النبى (صلي الله عليه وسلم) عادوا إلى تكذيبه. " (التفسير الكبير للرازى)، فأنزل الله تعالى** ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ **والبطشة الكبرى تحتمل معنيين: (أحدهما): قول ابن مسعود: يوم بدر، (والثانى): قول ابن عباس: يوم القيامة.، وقال الرازى: " القول الثانى أصح؛ لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف به هذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة، ولما وصف بكونها كبرى وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق.**

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى

فَٱعۡتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

ذكّر القرآن كفار قريش بما حل بالطاغين من قوم فرعون فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴾ **أي: لقد امتحنا قبلهم قوم فرعون برسول كريم - وهو موسى عليه السلام -، طلب منهم موسى أن يسلموه بنى إسرائيل ليخرجوا معه من مصر. كما قال تعالى:** ﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ **[طه: ٤٧]، وقوله تعالى:** ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾ **أي: مأمون على ما أبلغكموه من الله.** ﴿ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ ﴾ **أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته والإيمان به. كقوله تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ **[غافر: ٦٠].** ﴿ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ **أي: بحجة ظاهرة واضحة - وهى ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعات.** ﴿ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴾ **وإنى استجرت بربى وربكم أن تنالونى بأذى؛ فإن لم تؤمنوا لى فكونوا بمعزل عنى ولا تتعرضوا لى** ﴿ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ﴾**. فلما طال مقامه - عليه السلام - بين أظهرهم، وأقام حجج الله - تعالى - عليهم، وكل ذلك ما زادهم إلا كفراً وعناداً، فدعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم** ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴾ **كما قال تعالى:** ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ

ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾. [يونس: ٨٨]،

فعند ذلك أمره الله - تعالى - أن يُخْرِج بنى إسرائيل من بين أظهرهم، ومن غير أمر فرعون، فقال عز وجل: ﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ **فاتبعه فرعون وقومه.** ﴿ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴾ **وذلك أن موسى - عليه السلام - لما جاوز هو وبنى إسرائيل البحر أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان؛ ليصير حائلا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم؛ فأمره الله - تعالى - أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه. ثم أخبر الله - تعالى - عن هلاكهم فقال:** ﴿ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ **وكم هنا للتكثير، أي: أن قوم فرعون تركوا وراءهم كثيراً من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية ومجالس وقصور، ونعمة كانوا فيها مرفهين، وأورثنا هذا الملك كله لبنى إسرائيل، وقد كانوا مستعبدين في يد القبط، كقوله تعالى:** ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾ **[الأعراف: ١٣٧].** ﴿ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ **أي: فلم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكى على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله - تعالى - فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا أن لا يُنْظروا ولا يُؤخروا؛ لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم.**

قال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ

كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يمتن الله على بنى إسرائيل حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ **أي: كان مستكبراً جباراً عنيداً.** ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **أي: اختارهم واصطفاهم وشرفهم على أهل زمانهم على علم منه - سبحانه وتعالى - باستحقاقهم لذلك الشرف. وقوله تعالى:** ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ **أي: أتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار وامتحان ظاهر جلى لمن تدبر وتبصر، قال الرازى: " والآيات مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من الآيات الباهرة، التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم. " (التفسير الكبير للرازى: ٢٤٨/٢٧).**

قال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

لمَا ذكر - تعالى - إهلاك فرعون وقومه، وإحسانه لبنى إسرائيل وتعداد نعمه عليهم؛ كان المقصود من ذلك تسلية نبيه محمد (صلي الله عليه وسلم) وتبشيره بأنه سينجيه وقومه المؤمنين من أيدى المشركين، لأنهم لم يبلغوا في التجبر مثل فرعون وقومه. (حاشية الصاوى على الجلالين: ٦٠/٤٨). يقول الله - تعالى - منكراً على كفار قريش في إنكارهم البعث والمعاد، ويحتجون بآباءهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، وهذه حجة

باطلة وشبهة فاسدة؛ فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا،

حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ **فرد عليهم القرآن مهدداً لهم ومتوعداً، أو منذراً لهم بأسه الذي لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث كقوم تبع (أهل سبأ من ملوك اليمن - الذين كانوا أكثر أموالاً وأعظم نعيماً من كفار قريش) والذين من قبلهم، وقد أهلكهم الله مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة، فإهلاك هؤلاء أولى.**

قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

في هذه الآيات ينبه الله - تعالى - إلى دلائل البعث، وهو خلق العالم بالحق والعدل المبين؛ ليجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؛ فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

لَعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك فينكرون البعث والجزاء. قال المفسرون: " إن الله - تعالى - خلق النوع الإنسانى، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم، من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع المخلوقات، ثم كلفهم بالإيمان والطاعة، فآمن البعض وكفر البعض، فلابد إذاً من دار جزاء يثاب فيها المحسن، ويعاقب فيها المسىء؛ لتجزى كل نفس بما كسبت، ولو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهواً وعبثاً، وتنزه الله عن ذلك؛ ولهذا قال بعده: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي: في ذلك اليوم الرهيب لا ينفع قريب قريباً ولا ينصره. ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي: لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله - عز وجل - بخلقه، فهو العزيز ذو الرحمة الواسعة. وهو استثناء متصل – أي: لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض (البحر المحيط: ٣٩/٨). وقال ابن عباس: " يريد المؤمن " فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة. ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي: هو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

ولمَا ذكر الله - تعالى - الأدلة على القيامة، أردفه بوصف ذلك اليوم الرهيب فذكر وعيد الكفار أولاً، ثم ثنى بوعد المتقين ثانياً؛ للجمع بين الترهيب والترغيب؛ ولهذا سمى القرآن مثانى، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ والمراد بالأثيم: الفاجر ذو الإثم وهو أبوجهل، وذلك أنه كان يقول: " يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، وإنما هو الثريد بالزبد والتمر. " (تفسير القرطبى: ١٤٩/١٦)، ثم يأتى بالزبد والتمر ويقول لأصحابه: "

تزقموا - سخرية واستهزاء بكلام الله؛ إنما شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم طعام كل فاجر، ليس له طعام غيرها، إذا أكلها الإنسان تغلى في بطنه كالنحاس المذاب الذي تناهى حره ﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ **أي: كغليان الماء الشديد الحرارة. قال تعالى:** ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ **أي يقال للزبانية: " خذو هذا الفاجر اللئيم فسوقوه وجروه من تلابيبه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم،** ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ **أي: عذاب ذلك الحميم الذي تناهى حره، ثم يقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة :** ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾**، قال عكرمة: " التقى النبى (صلي الله عليه وسلم) بأبى جهل، فقال النبى (صلي الله عليه وسلم) : " إن الله أمرنى أن أقول لك** ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ **فقال: " بأى شيء تهددنى ! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئاً، إنى لمن أعز هذا الوادى وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذله، ونزلت هذه الآية** ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ **أي: تشكون (القرطبى: ١٥١/١٦). ثم أتبع الله بذكر أحوال أهل الجنة فقال:** ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ **أي: إن الذين اتقوا الله في الدنيا - بامتثال أوامره واجتناب نواهيه - هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره - وهو الجنة -؛ ولهذا قال:** ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ **أي: في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية** ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ **وهو ما رق من الحرير وما غلظ وما فيه من البريق واللمعان.** ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ **أي: متقابلين في المجالس ليأنس بعضهم ببعض،** ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ **أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان،** ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ **- وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم - أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحْضِر لهم، وهم آمنون من**

انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا، ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ **أي: ليس في الآخرة موت فهي خلود بلا موت،** ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ **أي: ومع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم من العذاب الأليم؛ ولهذا قال عز وجل:** ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ **أي: إنما كان ذلك بفضله عليهم وإحسانه إليهم، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما: " أن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) قال:(سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل الجنة أحداً عمله)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال:(ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل)، وقوله تعالى:** ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ **أي: فإنما سهلنا القرآن بلغتك - وهى لسان العرب - لعلهم يتفهمون ويعملون به، ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند؛ فلذا قال الله - تعالى - لرسوله (صلي الله عليه وسلم) مسلياً وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالهلاك:** ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ **أي: فانتظر يا محمد ما يحل بهم، إنهم منتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة.**

* * *

سورة الجاثية

مختارات من التفاسير
في الحواميم

سورة الجاثية

سورة الجاثية مكية إلا الآية " ١٤ " فمدنية، وآياتها سبع وثلاثون آية، ونزلت بعد الدخان، وتعالج السورة قضية الوحدانية والبعث والجزاء، وتبين السورة دلائل قدرة الله العزيز الحكيم ووحدانيته، وإنكار المشركين لهذه الآيات، وقول الله - سبحانه وتعالى - للذين آمنوا أن يغفروا للذين ينكرون البعث؛ ليتولى الله جزاءهم بما كانوا يكسبون من الآثام، وتنتهي السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين، حيث تنقسم الإنسانية إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

سميت هذه السورة بهذا الاسم للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

قال تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ حمٓ ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: هذا القرآن تنزيل من الله، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمة ومصلحة للعباد، ثم أخبر - تعالى - عن دلائل الوحدانية

والقدرة فقال: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ **أي: إن في خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات آيات باهرات للمؤمنين، إذ يتأملونها ويستشرقون أسرارها، وكذلك خلقكم وما نشر في الأرض من دواب بعد امتاعها بكل ما تحتاج إليه من أعضاء وإلهامات لحياتها؛ آيات باهرة أيضاً لقوم يصدقون بقدرة رب العالمين، وكذلك تعاقب الليل والنهار، دائبين لا يفتران، وإنزال المطر من السماء وما يليه من إخراج النبات من الأرض، وتصريف الرياح بتوجيهها إلى جهات مختلفة حسب حكمة الله، وكل هذه علامات ساطعة وواضحة على وجود الله ووحدانيته.** ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ **أي: هذه آيات الله وحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته، فكيف يكذب بهذه الآيات الذين لا يؤمنون ؟ والغرض: استعظام تكذيب كفار قريش للقرآن بعد وضوح بيانه وإعجازه.**

قال تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

بعد أن عرض القرآن الآيات الدالة على قدرة الله ووحدانيته، وكيف كذب كفار قريش بهذه الآيات، بشرهم بالهلاك والدمار، حيث قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ **أي: كذاب مبالغ في اقتراف**

الآثـــــام، ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ **أي: يسمع آيات الله تقرأ عليه - وهي في غاية الوضوح والبيان -، ثم يدوم على حاله من الكفر، ويتمادى في غيه وضلاله، فبشره يا محمد بعذاب شديد مؤلم.** ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ **أي: إذا بلغه شيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد، سخر واستهزأ بها.** ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ **أي: أولئك الأفاكون المستهزءون بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة،** ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ ﴾ **أي: أمامهم جهنم تنتظرهم لما كانوا فيه من التكبر في الدنيا عن الحق،** ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ **أي: لا يدفع عن الكافرين ما كسبوه من الأموال من عذاب الله شيئاً، ولا ما اتخذوا من دون الله من نصراء أو شركاء،** ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ **أي: هذا القرآن هدى لمن اتبعه من المؤمنين،** ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ **أي: الذين كفروا بالقرآن لهم أشد العذاب جزاء لهم على كفرهم.**

قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ثم لما توعد الله الكفار بأنواع العذاب، ذكرهم - تعالى - بنعمه الجليلة عليهم ليشكروه ويوحدوه فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ **أي: ذلل لكم البحر على ضخامته وعظمته؛ لتسير السفن على سطحه بمشيئته وإرادته، دون أن تغوص في أعماقه، ولتطلبوا من فضل الله بسبب التجارة، والغوص على اللؤلؤ والمرجان، وصيد الأسماك**

وغيرها ﴿ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ **أي: لأجل أن تشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم،** ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ ﴾ **أي: سخر لكم من النجوم والكواكب والجبال والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به - أي الجميع منه ما تعلمونه وما لا تعلمونه - الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال تعالى:** ﴿ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ ﴾ **أي: من عنده وحده لا شريك له. كما قال تعالى:** ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾ **[النحل، آية: ٥٣]، وقوله تعالى:** ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ **أي: إن فيما ذكر لعبر وعظات لقوم يتأملون في بدائع صنع الله، فيستدلون على قدرته ووحدانيته ويؤمنون به.**

قال تعالى:

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ثم لما بين دلائل التوحيد والقدرة والحكمة؛أردفه بتعليم فضائل الأخلاق في معاملة الكفار، فقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ **أي: قل يا محمد للمؤمنين أن يصفحوا عن الكفار، ويتجاوزوا عما يصدر عنهم من الأذى، فهم لا يخافون بأس الله وعقابه؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا بلقاء الله؛ ولهذا قال عز وجل:** ﴿ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾**. قال ابن كثير: " كان ذلك الصفح وتحمل الأذى من الكفار في ابتداء الدعوة تأليفاً لقلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجهاد. " (مختصر ابن كثير: ٣/ ٣٠٩).** ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾ **أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم؛ فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها، فمن فعل**

خيراً في الدنيا فنفعه لنفسه، ومن ارتكب سيئة فشرها وضررها عائد عليها.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يذكر الله - تعالى - ما أنعم به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم، وإرسال الرسل إليهم، وجعل الملك فيهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي: من المآكل والمشارب ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: في زمانهم، قال الصاوى: " والمقصود من ذلك: تسليته (صلي الله عليه وسلم) كأنه قال: " لا تحزن يا محمد على كفر قومك، فإننا آتينا بنى إسرائيل هذه النعم العظيمة، فلم يشكروا بل أصروا على الكفر، فكذلك قومك. ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي: بينا لهم في التوراة أمر الشريعة وأمر محمد وشواهد نبوته، ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أي: فما اختلفوا في ذلك الأمر، إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين والأدلة القاطعة على صدقه (صلي الله عليه وسلم). ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أي: حسداً وعناداً وطلباً للرياسة. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، وفى الآية زجر للمشركين أن يسلكوا

مسلك من سبقهم من الأمم العاتية الظالمة. ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ **أي: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين. فإنك على طريقة واضحة، ومنهاج سديد رشيد من أمر الدين.** ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ **أي: إنهم لن يدفعوا عنك شيئاً من العذاب إن سايرتهم على ضلالهم،** ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ **أي: إن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا، ولا ولى لهم في الآخرة،** ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ **أي: وهو - تعالى - ناصر ومعين للمؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة،** ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ **أي: هذا القرآن نور وضياء للناس بمنزلة البصائر للقلوب، وهو رحمة لمن آمن به وأيقن.**

قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

بعد أن بيَن الله أن القرآن نور وهداية لمن تمسك به، أعقبه ببيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر، لا في الدنيا ولا في الآخرة. فقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ **والاستفهام للإنكار؛ أي: هل يظن الكفار - الذين اكتسبوا المعاصى والآثام - أن نجعلهم كالمؤمنين الأبرار سواء في الدنيا أو الآخرة ؟! ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوى بين الأبرار**

والفجار في الدار الآخرة وفى هذه الدار. ثم بين الله - تعالى - أدلته على البعث والنشور فقال عز من قائل: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي: خلق السماوات والأرض بالعدل، ولكى يجزى كل إنسان بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، دون أن ينقص في ثواب المؤمن، أو يزاد من عذاب الكافر. ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أي: إنما يأتمر بهواه ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي: أضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، أو أضل الله ذلك الشقى في حال كونه عالماً بالحق غير جاهل به، فهو أشد قبحاً وشناعة ممن يضل عن جهل، بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه. ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعى شيئاً يهتدى به، ولا يرى حجة يستضيء بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ أي: فمن الذي يستطيع أن يهديه بعد أن أضله الله ؟ لا أحد يقدر على ذلك. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: أفلا تتعظون ؟!.

قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

يحكى القرآن عن قول المشركين وشبهتهم في إنكار القيامة، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ ﴾ **أي: لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، يموت بعضنا ويحيى بعضنا، ولا آخرة، ولا بعث، ولا نشور، وما يهلكنا إلا مرور الزمان، وتعاقب الأيام، فقال - تعالى - رداً عليهم:** ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ ﴾ **أي: ليس لهم مستند من عقل أو نقل؛ ولذلك أنكروا وجود الله من غير حجة ولا بينة؛ولذلك قال تعالى:** ﴿ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ **أي: يتوهمون ويتخيلون، وقوله تعالى** ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ **أي: إذا قرئت عليهم آيات القرآن تبين لهم الحق؛ ليستدلوا على أن الله - تعالى - قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها،** ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ **أي: أحيوا لنا آباءنا إن كنتم صادقين، فرد عليهم القرآن بقوله - تعالى - قل لهم يا محمد:** ﴿ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ﴾ **أي: يخرجكم من العدم، فخلقكم ابتداء حين كنتم نطفاً، وهو الذي يميتكم عند انقضاء آجالكم، كقوله تعالى:** ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتًا فَأَحۡيَٰكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] **أي: الذي قادر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى،** ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]. **وقوله تعالى:** ﴿ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ **أي: إنما يجمعكم إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه؛ للجزاء والحساب، ولا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا:** ﴿ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾. **وقوله عز وجل:** ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ **أي: ولكن أكثر الناس - لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر - ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد.** ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ

ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ أي: إن الله مالك السماوات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ويوم القيامة يخسر الكافرون بالله المنكرون للبعث، ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ ﴾ أي: على ركبها من شدة الهول والفزع، ﴿ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ أي: إلى صحائف أعمالها، ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أي: في هذا اليوم الرهيب تنالون جزاء أعمالكم من خير أو شر؛ ولهذا قال - جلت عظمته: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقصان، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أي: كنا نأمر الملائكة الحفظة بكتابة أعمالكم، وإثباتها عليكم، قال المفسرون: " تنسخ هنا بمعنى تكتب، وحقيقة النسخ: هو النقل من أصل إلى آخر، وقال ابن عباس: " تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكة الموكلون بديوان الأعمال ما كتبه الحفظة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القِدَمْ على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، فذلك هو الاستنساخ.

قال تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ
فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا
رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ
﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾
وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ
فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ

ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يخبر الله - تعالى - في القرآن عن حكمه في خلقه يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦ ﴾ **أي: الذين آمنت قلوبهم، وصدقت جوارحهم بالأعمال الصالحة الموافقة للشرع فيدخلهم ربهم الجنة، وذلك هو الفوز العظيم،** ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ **يقال لهم ذلك توبيخاً وتقريعاً؛ أما قرئت عليكم آيات الله؟! فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم؛ مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب، وإذا قال لكم المؤمنون:** ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ **أي: قلتم لا نعرفها:** ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا ﴾ **أي: لا نصدق بها؛ ولكن نسمع الناس يقولون: " إن هناك آخرة، فنتوهم بها توهماً، ولسنا بمستيقنين؛ ولهذا قال:** ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾ **أي: شاكين في وقوعها، وقوله تعالى:** ﴿ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ **أي: ظهر لهم في الآخرة قبائح أعمالهم السيئة، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزؤون به في الدنيا،** ﴿ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ﴾ **أي: نعاملكم معاملة الناسى لكم في نار جهنم، كما تركتم الطاعة ولم تعملوا لآخرتكم لأنكم لم تصدقوا بها.** ﴿ وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾ **فاليوم مستقركم في نار جهنم، وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله، وهذا العذاب بسبب أنكم سخرتم من كلام الله واستهزأتم به، وخدعتكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها، حتى ظننتم ألاّ حياة سواها، وكذبتم بالبعث والنشور، فلا ينفعكم اليوم توبة ولا يقبل منكم أعذار.**

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي: فله وحده الحمد الخالص، ولا يستحق الحمد أحد سواه، لأنه الخالق المالك لجميع المخلوقات والكائنات، ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: له العظمة والجلال، والبقاء والكمال في السماوات والأرض.﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: الغالب الذي لا يُغْلبْ، الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره لا إله إلا هو.

* * *

سورة الأحقاف

مختارات من التفاسير في الحواميم

سورة الأحقاف

هذه السورة مكية ما عدا الآيات: " ١٠، ١٥، ٣٥ " فمدنية، ونزلت بعد الجاثية، وآياتها خمس وثلاثون، وتعالج قضية العقيدة كبقية السور المكية، والمحور الرئيسى الذي تدور في فلكه السورة هو الإيمان بوحدانية الله، وبالوحى، والرسالة، والبعث وما وراءه من حساب وجزاء.

بدأت السورة الكريمة بدلائل وحدانية الله بآيات من القرآن، ثم مناقشة المشركين والمنكرين للبعث، وتفنيد شبهتهم حول القرآن، ثم عرض نموذجين للفطرة البشرية: المستقيمة والمنحرفة في مواجهة العقيدة، وبين حال المؤمن البار لوالديه ذو الفطرة المستقيمة، وثنى بحال الكافر العاق لوالديه ذو الفطرة المنحرفة، ثم تحدثت السورة عن قصة هود - عليه السلام - مع قومه الطاغين " عاد " الذين طغوا في البلاد واغتروا بقوتهم، فأهلكهم الله بالريح العقيم؛ ليتعظ بهم كفار قريش، ثم عرض سماع الجن للقرآن وإنصاتهم له والشهادة له بأنه الحق، ودعوة قومهم من الجن إلى الإيمان بالله والرسول.

وتختم السورة بتوجيه الرسول (صلي الله عليه وسلم) إلى الصبر وعدم الاستعجال للمشركين بالعذاب، فإنما هو أجل قصير يمهلونه، ثم يأتيهم العذاب والهلاك.

وسميت هذه السورة بهذا الإسم (الأحقاف) نسبة إلى مساكن " عاد " الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم، وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن ﴿ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ ﴾ [الآية: ٢١].

قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات الأدلة الدامغة على وحدانية الله العزيز الحكيم، فهذا الكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف ﴿ حمٓ ﴾ **على غير مثال من كلام البشر، يشهد أنه** ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾**، وكتاب الكون المنظور من خلق السماوات والأرض وما بينهما قائم على الحق وعلى التدبير** ﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ **أي: ما خلقنا السماوات وما بينهما عبثاً، إنما خلقناهما خلقاً متلبساً بالحكمة؛ لندل على وحدانيتنا وكمال قدرتنا،** ﴿ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ **أي: وإلى زمن معين هو زمن فنائهما يوم القيامة،** ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾ **أي: وهؤلاء الكفار المشركون معرضون عما أنذروا من عذاب وأهوال الآخرة، لا يتفكرون فيه ولا يستعدون له.** ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ **وهذا تلقين من الله - سبحانه - لرسوله (صلي الله عليه وسلم) ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح المنظور،** ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ ﴾ **ولن يملك إنسان أن يزعم أن تلك**

المعبودات - سواء كانت حجراً أم شجراً أم جناً أم ملائكة أم غيرها - قد خلقت من الأرض شيئاً، أو خلقت في الأرض شيئاً، أولهم شركة في خلق السماوات أو في ملكيتها، ﴿ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ **أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يأمركم بعبادة غير الله، وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحدانية الخالق المبدع، أو هاتوا دليل بيّن من آثار الأقدمين إن كنتم صادقين، وليس هناك من علم ثابت يؤيد مثل ذلك الزعم المتهافت. وقوله تعالى:** ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ **أي: لا أضل ممن يدعوا من دون الله أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش، لأنها جماد حجارة صم. وقوله تعالى:** ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ **أي: إذا جمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الأصنام أعداءً لعابديها وتتبرأ من الذين عبدوها وتقول:** ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴾ **[القصص: ٦٣]، وذلك كقوله تعالى:** ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾ **[مريم: ٨١، ٨٢].**

قال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ

وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

بعد أن قرر القرآن قضية التوحيد، بإنكار ما كان عليه القوم من الشرك الذي لا يقوم على أساس من واقع الكون، ولا يستند إلى حق من الكتب السابقة أو مأثور من العلم، يعرض في هذه الآيات موقفهم من رسول الله (صلي الله عليه وسلم)، وما جاءهم به من الحق، ويقرر قضية الوحى، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾ **أي: إذا تتلى عليهم آيات الله بينات واضحات يقولون لهذا الحق: " هذا سحر واضح، وشتان بين الحق والسحر، وهما لا يختلطان ولا يشتبهان،** ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾ **يعنون محمداً (صلي الله عليه وسلم)** ﴿ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ ﴾ **أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلنى وليس كذلك، لعاقبنى أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض - لا أنتم ولا غيركم - أن يجيرنى منه** ﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ ﴾ **أي: هو - جل وعلا - أعلم بما تخوضون في القرآن وتقدحون به من قولكم هو شعر، هو سحر، هو افتراء، وغير ذلك من وجوه الطعن.** ﴿ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ ﴾ **وهذا تهديد ووعيد أكيد لهم، أي كفى أن يكون - سبحانه وتعالى - شاهداً بينى وبينكم، يشهد لى بالصدق والتبليغ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب،** ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ **ومع ذلك يرغبهم القرآن في التوبة والإنابة، أي: إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفى عنكم وغفر ورحم.**

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ **أي: لست بأول رسول طرق العالم؛ بل قد جاءت الرسل من قبلى حتى أنكم تستنكرونى وتستبعدون بعثتى إليكم.** ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ **أي: ما أدرى ما يفعل بى في الدنيا، هل أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلى، أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى ؟ ولا أدرى أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ أما بالنسبة للآخرة جازم أن النبى (صلي الله عليه وسلم) يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه حيث نزل بعد هذه الآية:** ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ **[الفتح: ٢]، ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: " ها ذا قد بين الله - تعالى - ما هو فاعل بك يا رسول الله فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله - تعالى - :** ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ **[الفتح: ٥]، وقوله تعالى:** ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ **أي: لا أتبع إلا ما ينزله الله على من الوحى، ولا أبتدع شيئاً من عندى.** ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ **أي: وما أنا إلا رسول منذر لكم من عذاب الله.** ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ **أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن كان هذا القرآن الذي جئتكم به كلام الله حقاً وقد كذبتم به وجحدتمون بغير هدى ولا كتاب منير، وقد شهد رجل من علماء بنى إسرائيل على صدقه، فآمن به واستكبرتم أنتم عن الإيمان، فكيف يكون حالكم ؟، ألستم أضل الناس وأظلم الناس؟. كما شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من قبلى، فهذه الكتب بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.**

ومعنى آخر لقوله تعالى ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ ﴾ أي: استكبرتم أنتم عن اتباع القرآن، فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: لا يوفق للخير والإيمان من كان فاجراً ظالماً. ثم رد الله - تعالى - على شبهة أخرى من شبه المشركين فقال عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ أي: لو كان هذا القرآن والدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء الضعفاء أمثال بلال، وعمار، وصهيب، وخباب، وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء ممن أسلم وآمن بالنبى (صلي الله عليه وسلم)، وما ذلك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية، وقد أخطؤوا في ذلك خطأ فاحشاً كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴾ أي: إذا لم يهتدوا بالقرآن فسيقولون هذا كذب قديم مأثور عن الأقدمين. ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ أي: التوراة ﴿ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗ ﴾ أي: قدوة يؤتم بها في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، ورحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها. ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ أي: وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن، مصدق للكتب قبله بلسان عربى فصيح، فكيف ينكره كفار قريش وهو أفصح بياناً، وأظهر برهاناً، وأبلغ إعجازاً من التوراة ؟. ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أي: هذا الكتاب لينذر الكفار من عذاب الجحيم، ويبشر المؤمنين المحسنين بجنات النعيم. ثم يأتى تفصيل هذه البشرى لمن صدق بالله واستقام على الطريق فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ

يَعۡمَلُونَ ﴾ أي: إن الذين جمعوا بين الإيمان والتوحيد والاستقامة على شريعة الله، فلا يلحقهم مكروه في الآخرة يخافون منه، ولا هم يحزنون على ما خلفوا في الدنيا، وأولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبداً، ونالوا ذلك النعيم جزاء لهم على أعمالهم الصالحة.

قال تعالى:

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾.

ولما ذكر الله - تعالى - التوحيد وإخلاص العبادة له والاستقامة على شريعة الله، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله عز وجل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ ﴾

أي: قاست أمه بسببه في حال حمله مشقة وتعباً، ووضعته أيضاً بمشقة، وحمله وفطامه ثلاثون شهراً. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ **أي: قوى وشب وارتجل** ﴿ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾ **أي: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه.** ﴿ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ ﴾ **أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى، وأن أعمل صالحاً في مستقبل حياتى.** ﴿ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ **أي: في نسلى وعقبى.** ﴿ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ **وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله - عز وجل - ويعزم عليها. وقوله تعالى:** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ **أي: هؤلاء المتصفون بما ذكر التائبون إلى الله، المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ونتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الذلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل في جملة أصحاب الجنة.** ﴿ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ **أي: بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على ألسنة الرسل، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم. ولما مثل - تعالى - لحال الإنسان البار بوالديه، وما آلى إليه حاله من الخير والسعادة، عطف بحال الإنسان العاق لوالديه وما يؤول إليه أمره من الشقاوة والتعاسة. فقال تعالى:** ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ ﴾ **وهى أقل العقوق فهى كلمة من حرفين أف.** ﴿ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ ﴾ **أي: أبعث يعنى أنه منكر للبعث.** ﴿ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ﴾ **أي: وقد مضت قرون من الناس قبلى ولم يرجع منهم أحد.** ﴿ وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ ﴾ **وهما يسألان الله أن يهديه للإسلام قائلين له: ويلك، آمن بالله وصدق بالبعث والنشور وإلا هلكت.** ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ **أي: صدق لا خلف**

فيه.

﴿ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ **فيقول ذلك الشقى: ما هذا الذي تقولان من أمر البعث إلا خرافات وأباطيل سطرها الأولون في الكتب مما لا أصل له.** ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ **أي: دخلوا في زمرة أشباههم من الكافرين، الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وقوله:** ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ **بعد قوله:** ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ ﴾ **دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك، وهو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث. وقوله تعالى:** ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ **أي: لكل عذاب بحسب عمله؛ ولهذا قال - عز من قائل - :** ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ **أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها.**

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم يصور القرآن مشهد عرض الكفار على النار، وقبيل سوقهم إليها ويقال لهم عن سبب عرضهم عليها وسوقهم إليها ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ **أي: يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: لقد نلتم وأصبتم لذائذ الدنيا وشهواتها، ولم تدخروا للآخرة منها شيئاً، ولا شاكرين لله نعمته، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام، فلم يبق لكم نصيب اليوم في الآخرة.** ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ **ففى هذا اليوم - يوم الجزاء - تنالون عذاب الذل**

والهوان؛ بسبب استكباركم في الدنيا عن الإيمان والطاعة، وبسبب فسقكم وخروجكم عن طاعة الله، فجزاء الاستكبار الهوان،

فالكبرياء لله وحده، كما أن جزاء الفسوق عن منهج الله طريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضاً.

قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

يذكر القرآن عن مصرع " عاد " ومصارع القرى غيرها حول مكة، وقد وقفوا من رسولهم وأخيهم هود - عليه السلام - موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمد (صلي الله عليه وسلم) واعترضوا اعتراضاتهم. ليتأسى النبى بأخ له من الرسل لقى مثلما يلقى هو من إعراض قومه، ويذكره ليذكر المشركين في مكة بمصير الغابرين من أشباههم، وعلى مقربة منهم ومن حولهم.

فقولـــه تعـــالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ ﴾ **أي: واذكر يا محمد أخا عاد - وهو هود عليه السلام - وهو ينذر قومه لصلة قرابته لهم الكفيلة بأن تعطفهم إلى دعوته وهى عبادة الله وحده ولهذا قال:** ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾**. وكانوا يسكنون الأحقاف: وهو الجبل من الرمل، أو هو الجبل والغار، وقال على بن أبى طالب: الأحقاف هو وادٍ في حضرموت، وقال قتادة: أن عاداً كانوا حياً باليمن. وقوله تعالى:** ﴿ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ ﴾ **يعنى: وقد أرسل الله - تعالى - إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين، كقوله - عز وجل:** ﴿ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ **[البقرة: ٦٦]، " وكقولـــه - جـــل وعـــلا:** ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ **[فصلت١٣، ١٤] فأجابه قومه قائلين:** ﴿ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾ **أي: لتصدنا عن آلهتنا** ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ **أي: استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه كقولـــه تعـــالى:** ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا ﴾ **[الشورى: ١٨] قال لهم هود:** ﴿ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ **أي: إنما أنذركم بالعذاب كما كلفت أن أنذركم، ولست أعلم متى يحين موعده، ولا كيف يكون شكله، فعلم ذلك عند الله، وإنما أنا مبلغ عن الله** ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ **أي: لا تعقلـــون، وقولـــه تعـــالى:** ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ **وتقول الروايات: أنه أصاب القوم حر شديد، واحتبس عنهم المطر، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف. ثم ساق الله إليهم سحابة،**

ففرحوا بها فرحاً شديداً، وخرجوا يستقبلونها في الأودية وهم يحسبون فيها الماء ﴿ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَا ﴾ وجاءهم الرد بلسان الواقع: ﴿ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا ﴾ أي: ريح صرصر عاتية هو العذاب الذي استعجلتموه فقلتم: ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وكانت هذه الريح مأمورة من الله بتدمير كل شيء، كقوله تعالى: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤٢] أي: كالشيء البالي، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ ﴾ أي: أبيدو عن آخرهم ولم يبق لهم باقية. ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ أي: هذه سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين. ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعًا وَأَبۡصَٰرًا وَأَفۡـِٔدَةً فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ أي: لقد مكناهم في الدنيا ما لم نمكنكم فيه... إجمالاً... من القوة والمال والعلم والمتاع. وآتيناهم حواس الإدراك الكاملة من سمع وبصر وفؤاد، فعطلوها وحجبوها فلم تنفعهم في شيء ﴿ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك. ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ من العذاب والبلاء. أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ وقد أهلك الله القرى التي كذبت رسلها في الجزيرة " كعاد " بالأحقاف في جنوب الجزيرة، و " ثمود " بالحجر في شمالها، " وسبأ " وكانوا باليمن، " ومدين " وكانت في طريقهم إلى الشام، وكذلك " قرى قوم لوط " وكانوا يمرون بها في رحلة الصيف إلى

الشمال. ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ ﴾ **أي: بيّناها وأوضحناها** ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ **أي: لعلهم يرجعون إلى ربهم ويثوبون.** ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾ **أي: فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم. فقد دمر الله المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم آلهتهم التي كانوا يتخذونها من دون الله، زاعمين أنهم يتقربون بها إليه. إنهم لم ينصرونهم** ﴿ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ﴾ **وتركوهم وحدهم لا يعرفون طريقا إليهم أصلا، فضلا على أن يأخذوا بيدهم وينجدوهم من بأس الله.** ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ **أي: كذبهم وافترائهم في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها.**

قال تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

لقد قدّر الله - سبحانه وتعالى - أن يصرف نفر من الجن إلى استماع القرآن، ولم يكن مصادفة عابرة، وكان في تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة، كما عرفت من قبل رسالة موسى، وأن يؤمن فريق منهم وينجوا من النار المعدة لشياطين الجن، كما هي معدة لشياطين الإنس. ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾

أخرج البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما قال: " ما قرأ رسول الله (صلي الله عليه وسلم) على الجن ولا رآهم. انطلق رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض ومغاربها، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١، ٢]... وأنزل الله على نبيه (صلي الله عليه وسلم) : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: ١].... وإنما أوحى إليه قول الجن. ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ أي: فلما حضروا القرآن عند تلاوته قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن، قال القرطبى: هذا توبيخ لمشركى قريش، أي: إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به، وعلموا أنه من عند الله، وأنتم معرضون مصرون على الكفر (تفسير القرطبى: ١٦/٢١٠). ﴿ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي: فلما فرغ، رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله (صلي الله عليه وسلم) إن لم يؤمنوا، قال الرازى: وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، لأنهم لا يدعون غيرهم إلى

استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا (التفسير الكبير: ٣٢/٢٨). وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر وليس فيهم رسل كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِى ٱلۡأَسۡوَاقِ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٍ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال عن إبراهيم الخليل - عليه السلام - : ﴿ وَجَعَلۡنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَـٰبَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وأما قوله تعالى في سورة الأنعام [الآية: ١٣٠] ﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَـٰذَا ﴾ فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس كقوله: ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي أحدهما، ثم إنه فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿ قَالُواْ يَـٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ﴾ أي: إنا سمعنا كتاباً جديداً أنزل من بعد موسى، يصدق كتاب موسى في أصوله، ولم يذكروا عيسى - عليه السلام - لأنه أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة. ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ أي: من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله. ﴿ يَهۡدِىٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ ﴾ أي: في الاعتقاد والإخبار، ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ في الأعمال، فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب؛ فخبره صدق وطلبه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقًا وَعَدۡلاً ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣] فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح وهكذا قالت الجن: ﴿ يَهۡدِىٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ ﴾ في الاعتقادات ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾

أي: في الأعمال. ثم مضوا في نذارتهم لقومهم قائلين: ﴿ يَـٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ **وفى هذه الآية دلالة على أنه - تعالى - أرسل محمداً (صلي الله عليه وسلم) إلى الثقلين الجن والإنس حيث دعاهم إلى الله تعالى. فقال الجن لقومهم:**﴿ يَـٰقَوۡمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِه ﴾، **وآمنوا كذلك بالآخرة، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معها غفران الذنب، والإجارة من العذاب. فبشروا وأنذروا بهذا الذي عرفوه، واستكمالاً لنذارتهم لقومهم قالوا:** ﴿ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ **أي: من لم يؤمن بالله ويستجيب لدعوة رسوله لا يعجز الله أن يأتى به ويوقع عليه الجزاء، ويذيقه العذاب الأليم، ولا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه، أو يعينونه، وأن هؤلاء المعرضون ضالون ضلالاً بيناً عن الصراط المستقيم.** ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ **ويحتمل أيضا أن تكون هذه الآية من جملة كلام الجن، تعجباً من أولئك الذين لا يستجيبون لله، حاسبين أنهم سيفلتون، أو أنه ليس هناك حساب ولا جزاء. فالله العظيم القدير الذي خلق السماوات والأرض ابتداء من غير مثال سابق، ولم يتعب بخلقهن، فهو القادر على أن يعيد الموتى بعد الفناء، فهو القادر الذي لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم.**

قال تعالى:

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وعلى ذكر قدرة الله على الإحياء والبعث يصور القرآن مشهد الحساب ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الأهوال والشدائد التي يرونها في الآخرة، وذكرهم يوم يعرضون على النار فيقال لهم: ﴿ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؟ أي: أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حق ؟ ﴿ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور: ١٥] ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أي: قالوا: بلى وعزة ربنا، أكدوا كلامهم بالقسم طمعاً في الخلاص، قال الفخر الرازى: والمقصود بالآية: التهكم بهم، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٨] (التفسير الكبير: ٣٤/٢٨). ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي: فيقال لهم: ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم.

قال تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وفى هذه الآية توجيه من الله لرسوله (صلي الله عليه وسلم) بالصبر على أذى الكافرين، وألا يستعجل لهم، فقد رأى ما ينتظرهم وهو منهم قريب ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي: كما صبر مشاهير الرسل الكرام وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام -، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أي: ولا تدع عليهم بتعجيل العذاب، فإنه نازل بهم لا محالة، ولا تستعجل حلول العقوبة بهم، كقوله تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٧]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَار ﴾ أي: كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة لم يلبثوا إلا ساعة واحدة من النهار في الدنيا، لما يشاهدون من شدة العذاب

وطوله، كقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]**، وقوله تعالى:** ﴿ بَلَٰغٞ ﴾ **أي: بيان، أو هذا القرآن بلاغ، أو هذه الساعة من النهار قبل لقائهم المصير المحتوم هى بلاغ قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم،** ﴿ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ **أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله - عز وجل - أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.**

* * *

الخاتمة

الحمد لله في البدء والختام، والصلاة والسلام على خير الآنام، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هذا جهد المقل، ولا أقول إنني جئت بأمر جديد ولكن اجتهدت وعلى الله التكلان، ولا ندعى الكمال فالكمال لله وحده، وكل إنسان يشعر بالنقص والعجز مهما أتقن في عمله وأحسن فيه؛ فسبحان من له الكمال وحده.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا وأن يتقبله منا.

الفقير إلى عفو ربه

أ. د/عبد الرحيم سلطان متولي

* * *

المراجـع

١- تفسير أبى مسعود.

٢- تفسير ابن كثير.

٣- تفسير القرطبي.

٤- تفسير البيضاوي.

٥- تفسير الجلالين.

٦- التفسير الكبير للرازي.

٧- البحر المحيط.

٨- التسهيل لعلوم التنزيل.

٩- صفوة التفاسير.

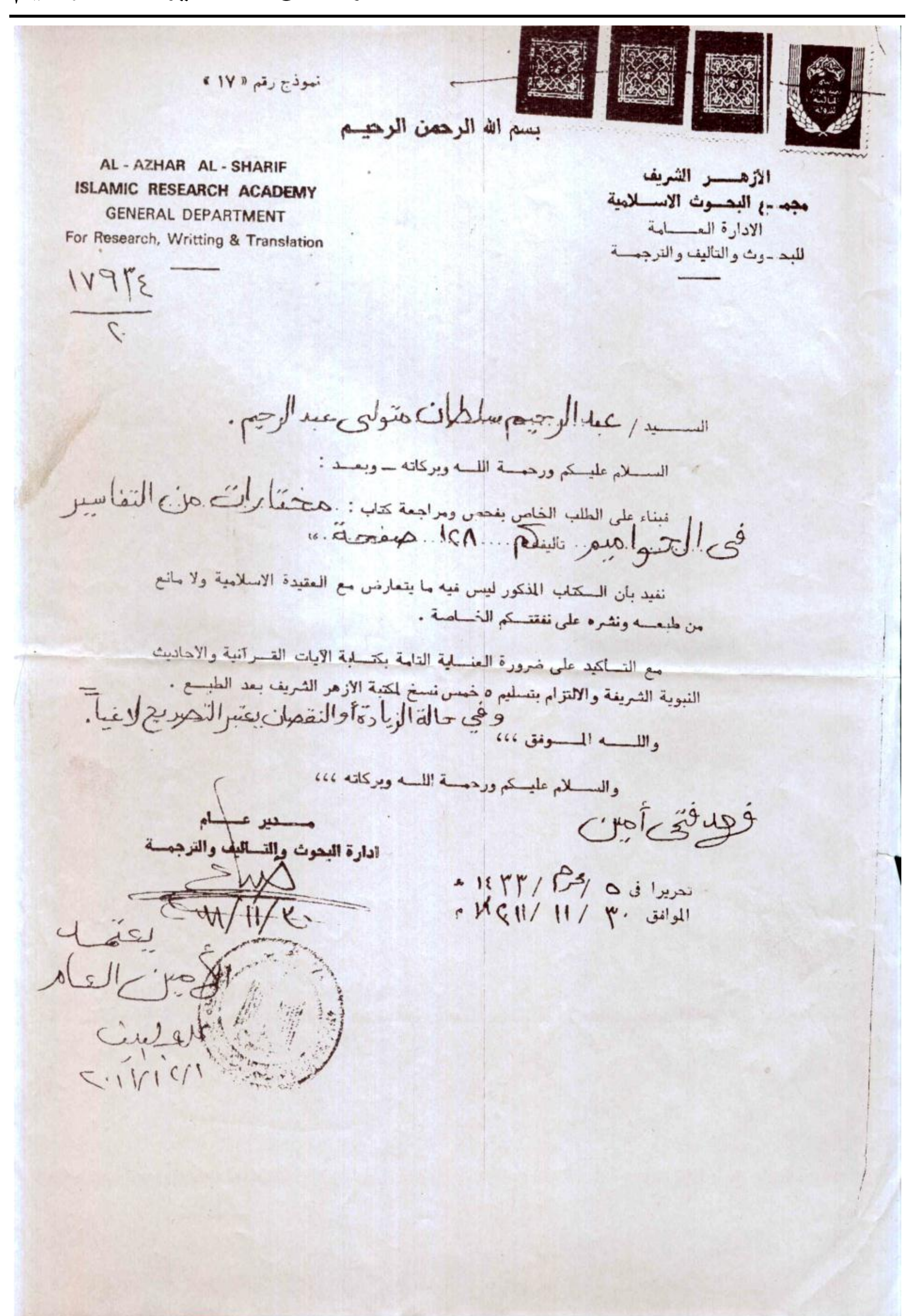
١٠- التفسير الوسيط.

١١- في ظلال القرآن.

١٢- المصحف المفسر " محمد فريد وجدي ".

١٣- المصحف المفسر " للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبري ".

* * *



نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الاسلامية
الادارة العامة
للبحوث والتاليف والترجمة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

١٧٩٣٤
٢

السيد / عبد الرحيم سلطان متولى عبد الرحيم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته — وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : «مختارات من التفاسير في الحواميم» تاليفكم ... ١٢٨ ... صفحة.»

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعه ونشره على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبع .

وفي حالة الزيادة أو النقصان يعتبر التصريح لاغيا.

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

فهد فتحي أمين

مدير عام
ادارة البحوث والتاليف والترجمة

٢٠١١/١١/٣٠

تحريرا في ٥ / محرم / ١٤٣٣ هـ
الموافق ٣٠ / ١١ / ٢٠١١ م

يعتمد
الأمين العام
[illegible]
٢٠١١/١٢/١

الفهرس

* * *